الباب الخامس

التفسير التحليلي لسورة الأنفال

5,1 ما نزل في تقسيم الأنفال .

5,2 ما نزل في خروج القوم مع الرسول ﷺ لملقاة قريش .

5,3 ما نزل في تبشير المسلمين بالمساعدة والنصر وتحريضهم .

5,4 ما نزل في رمي الرسول ﷺ المشركين بالحصباء .

5,5 ما نزل في الاستفتاح .

5,6 ما نزل في حض المسلمين في طاعة الرسول ﷺ .

5,7 ما نزل في ذكر نعم الله على الرسول ﷺ .

5,8 ما نزل في غرّة قريش واستفتاحهم .

5,9 ما نزل في مَن عاونوا أبا سفيان .

5,10 ما نزل في الأمر بقتال الكفار .

5,11 ما نزل في تقسيم الفيء .

5,12 ما نزل في لطف الله بالرسول .

5,13 ما نزل في وعظ المسلمين وتعليمهم خطط الحرب .

5,14 ما نزل في العظة من الغابرين .

5,15 ما نزل في عاقبة الغدر .

5,16 ما نزل في السلم ، متى وكيف ؟ .

5,17 ما نزل في الأسارى والمغانم .

5,18 ما نزل في التواصل بين المسلمين .

Prince of Songkla University Pattani Campus

5,1 ما نزل في تقسيم الأنفال :

قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4) ﴾.

5,1,1 المعاني اللغوية :

الأنفال : جمع مفرده نفل بالتحريك ، وقد جاء في أصل اللغة للدلالة على ما زاد عن الحد الضروري ، قال ابن منظور : " وجماع معنى النفل والنافلة ما كان زيادة عن الأصل " . (ابن منظور : 1992م : 4509/6) .

وبهذا المعنى جاء اللفظ في مواضع كثيرة تدور كلها حول الزيادة ، فولد الولد يسمى نافلة لكونه زيادة على الولد ، وصلاة التطوع نافلة لكونها زائدة على الواجب ، وكل عطية تبرع معطيها من صدقة أو عمل خير فهي نافلة .

فإذا عرضنا لمعنى الأنفال في الآية التي معنا ، وجدناها تطلق على الغنائم ، كما ورد عن ابن عباس وجمع من المفسرين ، فقد سأله رجل عن الأنفال فقال : الأنفال الغنائم. (البخاري ، 1378هـ : 131/3) .

والواضح أن السؤال الوارد بشأنها في أول الآية إنما هو لطلب معرفة حكمها ، وكيفية توزيعها ، ويكون المعنى ، (يسئلونك الأنفال) ، واستدل هذا البعض بقراءة ابن مسعود ، وسعد بن أبي وقاص ، وعلي بن الحسين ، وزيد ، ومحمد الباقر ، وغيرهم : (يسئلونك الأنفال) وأن (عن) زائدة .

Prince of Songkla University Pattani Campus

وإضافة الأنفال لله والرسول هي إضافة ملكية وإضافة حكم معاً ، فمالكها على الحقيقة هو الله تعالى ، أعطى ملكية التصرف فيها وحكم قسمها بين المسلمين لرسوله الكريم ﷺ. (سيد طنطاوي ، 1988م: 30/9) .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ إنما تفيد الحصر وهو حصر كمال الإيمان فيمن اتصف بهذه الصفات ،والمعنى إنما المؤمنون الكاملون في إيمانهم هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والوجل قال عنه المفسرون إنه الخوف والفزع عند ذكر الله تعالى مجرداً من غير ذكر موجبات الفزع . (الفيروزآبادي ، 1987م: ص1379) .

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ الظاهر أن المقصود بالآيات هنا المتلو منها وهو القرآن ، وزيادة الإيمان الحادثة عند التلاوة إنما هي زيادة يقين .

﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ يفوضون أمورهم كلها إليه تعالى .

5,1,2 سبب نزول الآية :

أما سبب نزول الآية ، فقد وردت به روايات عديدة سبق أن ذكرنا بعضها عند مبحث مكان نزول السورة ، وهنا نذكر بعضاً آخر من هذه الروايات .

أورد الشوكاني عن جمع من المحدثين رواية عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ : سَأَلْتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ عَنِ الْأَنْفَالِ فَقَالَ : " فِينَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ بَدْرٍ نَزَلَتْ حِينَ اخْتَلَفْنَا فِي النَّفْلِ وَسَاءَتْ فِيهِ أَخْلَاقُنَا فَانْتَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ أَيْدِينَا وَجَعَلَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَسَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ بَوَاءٍ يَقُولُ عَلَى السَّوَاءِ " . (الشوكاني ، 1997م : 283/2) .

وذكر الواحدي في هذا الصدد رواية أخرى ، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ قُتِلَ أَخِي عُمَيْرٌ وَقَتَلْتُ سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَأَخَذْتُ سَيْفَهُ وَكَانَ يُسَمَّى ذَا الْكَتِيفَةِ فَأَتَيْتُ بِهِ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : اذْهَبْ فَاطْرَحْهُ فِي الْقَبَضِ

Prince of Songkla University Pattani Campus

. قَالَ : فَرَجَعْتُ وَبِي مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ مِنْ قَتْلِ أَخِي وَأَخْذِ سَلَبِي . قَالَ : فَمَا جَاوَزْتُ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتْ سُورَةُ الْأَنْفَالِ . فَقَالَ : لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :" اذْهَبْ فَخُذْ سَيْفَكَ " . (الواحدي ، د.ت : ص 112) .

5,1,3 المعنى العام للآية :

عندما أتم الله نصره على المؤمنين يوم بدر ، نظروا إلى ما بين أيديهم من الغنائم ، و لم يكن هناك تشريع يقرر أصول تقسيمها ، وعندئذ تذكر المقاتلون أدوارهم ، فإذا الذي حاز على هذه الغنائم بعض منهم ، أما الآخرون فلم يشغلهم هذا الأمر أثناء القتال بقدر ما شغلهم هزيمة العدو من جهة ، والإحاطة برسول الله ﷺ حتى لا يخلص إليه المشركون من جهة أخرى .

وتصور البعض الذي حاز على هذه الغنائم أنها ملك خالص له ، ليس لأحد فيها نصيب ، بينما اعتقد الآخرون أنه بدون دورهم الأساسي في مطاردة العدو وحماية النبي ﷺ ، لم يكن يتسنى لهؤلاء جمع ما جمعوه ، وهكذا نشب الخلاف الذي عبَّر عنه عبادة بن الصامت رضي الله عنه بقوله:"حِينَ اخْتَلَفْنَا فِي النَّفْلِ وَسَاءَتْ فِيهِ أَخْلَاقُنَا ".

وغني عن البيان أن المرجع الأول في هذا الأمر بل وكل أمر هو النبي ﷺ ، الذي عرض عليه هذا الخلاف ، فلم يلبث أن نزل الوحي يقرر لجميع المختلفين حقيقة غابت عنهم ، وهي أن كل الغنائم لله ولرسوله ، وأنهم وإن كانوا سوف يعطون منها شيئاً ، فبالفضل والمنّة وليس لحق مقرر ، فالمسلم إنما يجاهد لإعلاء كلمة الله تعالى ، ومن ثم أبرزت الآية الكريمة هذا الأصل التشريعي ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ . ثم وجهتهم إلى ما ينبغي أن تكون عليه شخصية المسلم المجاهد ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في أموركم كلها ، وأولها هذا النهوض لعرض الدنيا والاهتمام به ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ فلا تظلموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا ، فما آتاكم الله من الهدي والرشد خير لكم ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ

وَرَسُولَهُ ﴾ فيما قرره من قسم الغنائم ، وسوف يتحقق ذلك منكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. (المراغي ، 1973م: 163/3) .

وتعرض الآيات الكريمة أيضاً قضية الإيمان الحق ، عرضاً يتضمن تحريضاً على طاعة رسول الله ﷺ ، فيما أمر به من قسمة الغنائم ، لأن وجل القلوب عند ذكره تعالى ، وزيادة الإيمان عند تلاوة آياته سبحانه يستلزمان امتثال ما أمر به ، من كون الأنفال لله والرسول .

قال الشوكاني في فتح القدير : أخرج الحكيم الترمذي وابن جرير وأبو الشيخ من طريق شهر بن حوشب عن أم الدرداء قالت : إنما الوجل في القلب كاحتراق السعفة يا شهر بن حوشب ، أما تجد قشعريرة ، قلت : بلى ، قالت فادع عندها فإن الدعاء يستجاب عند ذلك . (الشوكاني ، 1997م : 2/ 286) .

ثم تربط الآيات هذا الجانب العملي بمطلوبات العبادة في حياة المؤمن لتكتمل الإيمان جوانبه ، فالإيمان ليس بالتمني ، ولكنه اعتقاد صادق في القلب يصاحبه نطق اللسان وعمل الجوارح ، فإن حقائق الإيمان الأساسية عند المؤمنين : إقامة أركانه العملية ، فهم الذين يقيمون الصلاة خاشعة كاملة ، وهم الذين يؤدون حق الله فيما رزقهم من أموال ، وفيما استخلفهم من قوام للحياة .

أما العاقبة التي تقررها الآية ، فهي أن جزاء المؤمنين الذين تجلت حقائق الإيمان في حياتهم اعتقاداً وسلوكاً ، لهم يوم القيامة درجات عالية في الجنة ، أي منازل ومقامات فيها ، ولا تخالهم إلا أهل الغرف الذين أخبرنا عنهم النبي ﷺ. (المراغي ، 1973م : 166/3) .

5,1,4 فقه الآيات :

المتأمل في هذه الآيات الكريمة سوف يلفت نظره فيها أمور يتوقف عندها في محاولة لفهمها .

وأول هذه الأمور : هي صيغة السؤال الواردة في أولها .

فيما يجدر التنبيه إليه هو أن تلك الصيغة هي إحدى الصيغ التشريعية في القرآن الكريم ، سواء في أمور الشريعة في ميادينها الواسعة ، أم فيما يتعلق بتقرير بعض مسائل العقيدة . (الزركشي ، د.ت : 53/4) .

فتقرير مسائل الشريعة في العبادات ، أو المعاملات ، أو الحدود ، أو الأخلاق ، كذلك مسائل العقيدة كبعض السمعيات ، فيما جاء به القرآن ، إما أن يكون ابتداء من غير ظروف تعرض ، أو سؤال يرد ، كفرض الصيام والحج ، وإما أن يكون لظروف تعرض ملابسات تتطلب تشريعاً جديداً ، كتشريع كفارة الظهار ، وكتحريم الخمر في بعض مراحله ، وقد يكون هذا التشريع رداً إلى سؤال يوجه إلى النبي ﷺ لمعرفة حكم ، كما حدث في كثير من المسائل الشريعة ، وكما حدث أيضاً في بعض مسائل الغيب ، أو أحداث التاريخ ، وكان السائل بها بعض المشركين واليهود بقصد التعجيز .

فصيغة السؤال هي إحدى الصيغ التشريعية في القرآن الكريم ، الذي نزل منجماً في نيف وعشرين سنة ، يواجه تلك الأسئلة بإجاباتها في أوقاتها ، ويرسي قواعد الشريعة فيما يعرض من ظروف وملابسات لم يسبق فيها حكم من الإسلام . (السيد جبريل ،1983م:ص68).

أما الأمر الثاني في الآية : فإنه يستوقف القارئ عنه تجاوز لفظ السؤال إلى المسؤول عنه وهو الأنفال ، وكيف يتكلم أهل بدر في الأنفال ، بل وكيف يتعدى الأمر مجرد الكلام إلى التنازع عليها .

أن تطلع الإنسان إلى حظه من الدنيا ، أمر لا يغيب من الفطرة المركوزة في نفس الإنسان ، بل مما أمر الله تعالى به في قوله : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾. (سورة القصص : الآية 77) . على أن واقعة التركيبة البشرية في أهل بدر تقرر أنهم لم يطلبوا الأنفال حباً في الدنيا ، وإنما كان مبعث اهتمامهم في الغنائم ، أنها كانت مثابة شهادة بحسن البلاء في هذه الموقعة المباركة الحاسمة ، فكان

مَن أخذ سلباً أو أسر كافراً يتمنى أن يحوزه شهادة بحسن بلائه . (سيد طنطاوي ، 1988م: 39/6) .

أن الحرص على تلك الشهادة لم يكن ضرباً من الربا ، وإنما كان لشفاء صدورهم من المشركين ، ومع ذلك فإنهم حتى لو تطلعوا للأنفال بذاتها ، فإن هذا التطلع لم يكن بغرض التمتع الدنيوي بها ، وإنما كان ذلك ليعفيهم على مواصلة الجهاد .

أن انتزاع الأنفال منهم وردها إلى الله ورسوله ملكاً وقسماً ، يؤسس منهجاً جديداً في المجتمع الإسلامي وهو أن الأصل التكامل بين المسلمين فيما هو موجود بالفعل ، وليس التنازع على عرض جديد لم يقرر حكمه بعد .

لقد كان النبي ﷺ يكره الأنفال إذا كانت طريقاً لتمييز طبقة ، أو لكسر بعض القلوب ، ويقرر لأصحابه أن مجتمع المؤمنين هو مجتمع الرحمة والتعاون والبر والإحسان ،ومساعدة الضعفاء وبذل الخير للمحتاجين .

وقد ورد عن عطاء قوله : كان الإصلاح بينهم أن دعاهم رسول الله ﷺ وقال : " أقسموا غنائمكم بالعدل . فقالوا : قد أكلنا وأنفقنا . فقال ﷺ :" ليرد بعضكم على بعض " . (الآلوسي ، د.ت : 164/9) .

وعرضت الآيات الكريمة أيضاً قضيتين مهمتين شغلت العلماء قديماً وحديثاً ، وانحاز كل فريق منها إلى رأي :

الأولى : قضية زيادة الإيمان ونقصه .

الثانية : قضية التوكل .

أما قضية زيادة الإيمان ونقصه ، فقد أوردها الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ وليست تلك الآية وحدها التي تعرضت للقضية ، وإنما وردت آيات أخرى كثيرة تفيد زيادة الإيمان ، ومما يبين قبوله للنقص أيضاً ، منها قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ﴾ . (سورة آل عمران ، الآية : 174) . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (سورة

Prince of Songkla University Pattani Campus

التوبة ، الآية : 124) . ومن المفسرين الذين بسطوا القول في هـذه المسألة الإمام الآلوسي رحمه الله ، فقد قال ما ملخصه : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ أي تصديق كما هو المتبادر ، فإن تظاهر الأدلة وتعاضد الحجج مما لا ريب فيه موجباً لك . (الآلوسي ، د.ت : 165/9) .

هذه الآيات وغيرها دعت الجمهور من علماء المسلمين إلى قولهم بأن الإيمان يزيد في نفس المؤمن وينقص ، يقول المرحوم سيد قطب في هامش تفسيره لهذه الآية : (هنا تعرض قضية الإيمان يزيد وينقص ، وهي قضية من قضايا الفرق ، وقضايا علم الكلام ، في فترة الترف العقلي والفراغ من الاهتمامات العلمية الجادة ، فلا ندخل نحن الآن فيها) . (سيد قطب ، 1402هـ : 1475/3) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

5,2 ما نزل في خروج القوم مع الرسول ﷺ لملقاة قريش :

قال تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ(5) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ(6)وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ(7)لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ(8)إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ(9) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(10)إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ(11)﴾.

5,2,1 المعاني اللغوية :

اختلف المفسرون في توجيه الكاف في قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ ﴾ .
وقد لخّص القرطبي أقوالهم فيها فقال : قال الزجاج : الكاف في موضع نصب ، أي الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق . والمعنى امض لأمرك في الغنائم ونفّل مَن شئت وإن كرهوا . قاله الفراء أيضاً ، وقال أبو عبيدة : هو قسم ، أي والذي أخرجك ، فالكاف بمعنى الواو وما بمعنى الذي . وقال بعض العلماء : كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وقال عكرمة : المعنى أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك ... . (القرطبي ، 1996م : / 367-368) .

﴿ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾ الشوكة هي النفير والعدّة والسلاح ، أي ترغبون أن تظفروا بالطائفة التي ليس معها سلاح ، وليس فيها حرب ، وهي القافلة بتجارتها .

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ الاستغاثة طلب الغوث ، وهو العون ودفع البلاء ، والتخليص من الشدّة .

﴿ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ الألف هنا قد يقصد بها العدد حقيقة في بدر ، وقد يكون بياناً إجمالياً لما ورد من أعداد في السور الأخرى ، أما (مردفين) معناه أن الملائكة يتبع بعضهم بعضا ، أي الألف من الملائكة الذي أمدهم الله تعالى بهم جاءوا مترادفين ، وراء كل ملك ملك ، كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما . (الفخر الرازي ، د.ت : 130/8) .

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ﴾ يقال غشاه تغشية ، إذا غطاه ، واستغشى بثوبه وتغشى ، إذا تغطى . (ابن منظور ، 1992م : 3262/5) . أما النعاس فهو النوم ، وقيل هو مقاربته ، وقيل هو ثقلته .

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ المراد بالتطهير هنا ما يشمل الحدث الأصغر والأكبر معاً ، لأن المؤمنين في

Prince of Songkla University Pattani Campus

هذا الموقف قد عطشوا وأجنبوا ، ووسوس لهم الشيطان يشكك في صدق ما هم عليه من عقيدة ، وهذه الوسوسة هي المقصودة برجز الشيطان .

﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي يقويها بالثقة في رحمة الله تعالى وعونه قبل مشاهدة طلائع النصر . (الفخر الرازي ، د.ت : 134/8) .

5,2,1 سبب نزول الآيات :

قال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره قوله تعالى : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ . حدّثنا سليمان بن أحمد الطبراني حدّثنا بكر بن سهل حدّثنا عبد الله بن يوسف ، حدّثنا ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن أسلم أبي عمران ، حدّثه أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول : قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة " إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة ، فهل لكم أن نخرج قبل هذا العير لعل الله أن يغنمناها " فقلنا : نعم ، فخرج وخرجنا ، فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا : " ما ترون في قتال القوم إنهم قد أخبروا بخروجكم " . فقلنا : لا والله ما لنا بقتال العدو طاقة ، وكنّا أردنا العير ، ثم قال : " ما ترون في قتال القوم ؟ " فقلنا مثل ذلك ، فقال المقداد ابن عمر : إذاً لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى : " إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون " . قال : فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا أن يكون لنا مال عظيم ، قال فأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ . (ابن كثير ، 1996م : 287/2).

Prince of Songkla University Pattani Campus

5,2,3 المعنى العام :

تبدأ الآيات الكريمة في استعراض وقائع الغزوة ، عقب الدرس الذي تلقاه أهل بدر في شأن الأنفال ، وهذا الاستعراض يبدأ بالأحداث الأولى ، عندما جدّ الجد وأوشك اللقاء ، وأنها تحكي مشهد اتخاذ القرار في أول مواجهة عسكرية بين الحق والباطل .

لقد أفلتت القافلة بالفعل ، ولكن بقي الجيش ، والله تعالى قد أوحى إلى نبيه أنه يعده أحد الفوزين ، الفوز بالقافلة ، أو الفوز بالنصر المؤزر الذي يعلى كلمة الإسلام ، فأخذ يندب أصحابه ﷺ ويستشيرهم ، إلا أن السواد منهم ظل يقلب الأمر ، ولا يرى حكمة في هذا اللقاء غير المتكافئ ، وهذا ما جعلهم يقولون : لا والله ما لنا بقتال العدو طاقة ، ولكنا أردنا العير . (باشميل ، 1964م : ص139) .

ورغم وجاهة المنطق الذي أعتمد عليه هذا الفريق المؤمن الكاره للقاء العدو ، إلا أن هؤلاء قد غاب عنهم أن هناك شيئاً ما فوق قانون الأسباب العادية ، ألا وهو عون الله تعالى لهم ، لذلك جاءت الآيات تصور حالهم في كراهة هذا اللقاء ، فبدالهم أنهم قادمون على الموت .

وتنقل الآيات لبيان التدبير الإلهي التي يتجاوز المنافع الوقتية إلى ادخار ما هو أنفع للدين وأهله ، وهو ذلك النصر الذي هزّ اعتقاد المشركين ، وزلزل كيانهم ، ورفع راية الإسلام عالية مهابة . فطبيعة النفس البشرية إذا درت إلى فطرتها ، ترغب في الخير والنفع سهلاً خالصاً من العناء والمشقة ، أما مرد الله تعالى لهم فأمر آخر ، أمر يتحقق في تمحيص الإيمان ، وقمع الشرك ، ونصر الحق ، وأمر الله تعالى في هذا الشأن ماض ، ونافذ وإن كره الكافرون .

قال ابن كثير في تفسيره : قال الإمام أحمد : عن ابن عباس ، حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : " لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه

Prince of Songkla University Pattani Campus

رادؤه وإزاره ثم قال : " اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدا ، قال فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط راؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداؤه فرداه ، ثم التزم من ورائه ثم قال : يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ . (ابن كثير ، 1996م : 289/2) .

وهذا الحديث يفيد أن الآية نزلت استجابة لدعاء النبي ﷺ ، وقد ذهب بعض المفسرين ، استناداً إلى لفظ الآية ، إلى أن المستغيث هم المؤمنون .

ومن الواضح أن الجمع بين القولين سهل ، فلا مانع أن تكون الآية نزلت استجابة لاستغاثة الجميع ، وإلى ذلك ذهب الزهري فقال عن المستغيث : أنه رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، حكاه عنه الآلوسي . (الآلوسي ، د.ت : 172/9) .

أجاب الله تعالى دعاء رسوله الكريم والمؤمنين معه ، وجاء المدد ونزلت الملائكة في عدد كبير ، حددته آية الأنفال بألف ، ولكن سورة آل عمران في نفس الحديث عن بدر فيها المدد بخمسة آلاف ، وبثلاثة آلاف .

تبرز الآية الكريمة دور هذا المدد الملائكي في المعركة ، حتى مع القتال ، ومن باب أولى دور المؤمنين المقاتلين أنفسهم ، وأن دور كل منهما لا يعدو أن يكون صورة للأسباب الظاهرية ، أما المؤثر الحقيقي فهو الله تعالى "وما النصر إلا من عند الله ".

ويذكر الله تعالى في الآيات رسوله ﷺ والمؤمنين معه من أهل بدر ، نعمه المتوالية عليهم في أحلك مواقفهم ، عندما أوشك لقاء العدو في ظروف غير مواتية ، لا من جهة الاستعداد ولا من جهة الموقع الذي حلوا فيه ، فبلغ الضيق مبلغه عندما وسوس لهم الشيطان بأن سوء هذه الظروف لا يناسب ما هم عليه من إيمان ، وهنا تترا النعم ويتوالى العون .

فمن المؤكد أنه قد حدث للمؤمنين ذلك الموقف الذي حكاه القرآن من نزولهم بأرض سبخة لم تتماسك إلا بنزول المطر عليها ، وقلقهم وإشفاقهم من هذا اللقاء

Prince of Songkla University Pattani Campus

الذي جاء على غير موعد منهم ودون استعداد له ، وعطشهم وجنابتهم وحاجتهم إلى الماء للشرب والطهارة ، وسوسة الشيطان لهم ، كل ذلك قد حدَّث به القرآن من خلال سرد النعم التي غمر الله تعالى بها أهل بدر .

عن علي رضي الله عنه قال : " ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم ، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح " (القرطبي ، 1996م : 272/2) .

بهذا الأمن زال الرعب من قلوبهم ، وبما جلبه النعاس من الراحة قويت نفوسهم وأبدانهم للمواجهة .

5,2,4 فقه الآيات :

جاءت هذه الآيات لتستعرض وقائع الغزوة من أولها ، ولكنها تمضي أثناء ذلك لترسي بعض قواعد البناء للمجتمع الإسلامي من جهة ، وتشرح أبعاء قضية الاختيار البشري ، والاختيار الإلهي من جهة أخرى ، وتعالج مشاعر النفس الإنسانية من مواجهة الخطر من جهة ثالثة . (النسفي ، 1995م : 461/1) .

أما قاعدة البناء الاجتماعي الإسلامي في الآية فهي الشورى ، فأمام الأحداث التي تقرر مصائر الأمم إلى آماد بعيدة لابد من استشار أهل الرأي ، وطلائع الفكر .

إن الشورى مبدأ اجتماعي أصّله الإسلام ، وحدّد مجاله ، ودعا إليه ، وكان الرسول ﷺ قدوة في ذلك ، ومضى أصحابه من بعده عليه ، وبه علا البناء ، وارتفعت الأركان ، واكتملت الدولة الإسلامية ، وظلت لها القوة والسيادة ما حرص حكامها على هذا المبدأ.

ثم تبرز في الآية قضية الاختيار البشري والاختيار الإلهي ، إن أهل بدر مالوا إلى حيازة العير ، فلما فاتتهم شقَّ عليهم ذلك من جهة ، وكرهوا لقاء العدو من

Prince of Songkla University Pattani Campus

جهة أخرى ، ذلك كان اختيارهم ، أما اختيار الله تعالى لهم فكان اختيار لما يعـزّهم ، ويعلى شأنهم .

والمؤمن دأبه أن لا تمضي أمامه هذه الـدروس دون أن يقـف عنـدها ويستفيد منها ،وهذه الدروس يقرّر في نفس المؤمن أنه مهما حرص على الاحتياط لنفسه ، وجلب الخير لها ، فإن خالقه أعلم بما هو خير على الحقيقة ، وعلى المؤمن أن يرضـى بالمقام الذي أقامه الله فيه ، بعد أن يأخذ بأسباب الحياة كلها كما أمره به تبارك وتعالى .

ثم تدعونا الآيات إلى مناقشة قضيتين ، الأولى من قضايا الغيب ، وهـي قضية شهود الملائكة بدراً وقتالهم فيها ، والثانية من قضايا المنهج ، وهي حتمية الـدور البشري في قضية مثل الجهاد ، ولو شاء الله لتكفل بها ببعض مظاهر قدرته وكفاهم عناء القتال ومشقته .

أما بالنسبة للقضية الأولى : فإن المؤمنين في فهم قضايا الغيب منهج ، هذا المنهج يتلخص في أنهم لا يصدرون في هذا الأمر إثباتاً أو نفياً إلا عن نص من القرآن أو السنة النبوية الصحيحة .

أما بالنسبة للقضية الثانية : وهي قضايا المنهج ، فقد وردتْ آيات كثيرة كلها تدور حول ابتلاء المؤمن وتمحيص إيمانه ، والطريق إلى الجنة ، بـل إلى الـدرجات العالية منها ، وهو مع ذلك كله إصلاح لشأن الحياة ، ليعتدل ميزانها .

وتتّضح من الآيات أيضاً درس الرحمة الإلهية تتدارك أهل الإيمـان عنـد اشتداد المحن ، إذا هم أسلموا أمرهم إلى الله ، وقيادهم إلى حسن تدبيرهم ، إنه مكمـل لقضية الاختيار الإلهي وتقويمها للاختيار البشري ، بل هو نتيجة لهذه القضية ، إنه درس الإيمان كله .

Prince of Songkla University Pattani Campus

5,3 ما نزل في تبشير المسلمين بالمساعدة والنصر وتحريضهم :

قال تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (13) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (14) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (15) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (16)﴾ .

5,3,1 المعاني اللغوية :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾. يرجع كثير من المفسرين مثل الألوسي والشوكاني وأبي مسعود ، أن المخاطب بنعمة الله هنا هو النبي ﷺ خاصة ، ويكون المعنى على ذلك : أذكر يا محمد ذلك الوقت الذي أوحى الله تعالى فيه إلى الملائكة يخبرهم بمعيته لهم ونصره للمؤمنين ويأمرهم بتثبيتهم .

المعية المذكورة في الآية ، مقصود بها معية إعانة الملائكة على تثبيت المؤمنين ، والمعنى : إذ يوحي ربك إلى الملائكة قائلاً لهم إني معكم . (القرطبي ، د.ت : 378/4) .

﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾. إما أن يكون تفسيراً للمعية الواردة في الآية ،فمقتضى هذه المعية هو إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا ، وإما أن هذا القول هو من تلقين الملائكة ما يقولونه للمؤمنين في تثبيتهم .

﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ اي اضربوا الهام ففلقوها ، واحتزوا الرقاب فقطعوها . (ابن كثير ، 1996م : 343/2) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾. قال ابن منظور : والبنان الأصابع ، وقيل أطرافها واحدتها بنانة . (ابن منظور ، 1992م : 361/1) . والحكمة من الأمر بضرب الأصابع أنها مكمن القوة والتأثير في القتال ، أما الأمر بالضرب في الموضعين فالخطاب فيهما للملائكة ، وهو ما يفيد اشتراكهم بالفعل في قتال يوم بدر .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾. الخطاب هنا موجه إلى النبي ﷺ والمؤمنين معه ، و (شاقوا) من الشقاق ، وهو العداوة والخلاف . قال أبو بكر الرازي : والشِّق بالكسر ، نصف الشيء ،والشِّق أيضاً الناحية من الجبل . (الفخر الرازي ، 1994م : ص 352) .

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾. إعادة لفظ الجلالة ولفظ الرسول هنا مرّة أخرى ، وعدم التعبير عنها بالضمير لبيان شناعة فعل من يعاديهما ، ومدى جرأته على مقام من لا يجترأ عليهما . (سيد طنطاوي ، 1998م : 66/6) .

﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾. الإشارة في (ذلكم) إلى عذاب الدنيا بالقتل يوم بدر ، والخطاب هنا موجّه إلى الكفار ، والآية تفيد الوعيد بعذاب الآخرة بعد عذاب الدنيا الذي وقع لهم يوم بدر . (الفخر الرازي ، د.ت : 136/8) .

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾. الزحف هو الدبيب وسعى كل من الجيشين للقاء الآخر في ميدان القتال ، قال الأزهري : وأصل الزحف للصبي ، وشبّه بزحف الصبيان مشى الفئتين تلتقيان للقتال ، فيمشي كل فيه مشياً رويداً إلى الفئة الأخرى قبل التداخل للضراب . (ابن منظور ، 1992م: 1817/3) .

والخطاب والنداء هنا موجهان للمؤمنين ، وكل خطاب كان كذلك ، فالمخاطب به بعد النداء دائماً يكون مطلوباً من مطلوبات تحقيق الإيمان على الوجه الأكمل ، وعليه فالآية تقرّر أن الثبات في القتال هو من علائم صدق الإيمان .

Prince of Songkla University Pattani Campus

﴿ وعبارة فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾. مقصود بها النهي عن الانهزام أمـــامهم والفرار منهم ، وإنما عدل عن هذا التعبير أو التعبير بالظهور مكان الأدبار ، لبيان شناعة هذا الفعل وذم مَن يفعله ، لأن الفار كأنه يسلم دبره ، وفي ذلك من القـــبح مـــا هـــو واضح. (سيد طنطازي ، 1988م : 76/6) .

﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَـــاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ التحرف : هو تغيير الاتجاه والميل عن الخط المستقيم ، قال أبـــو بكـــر الرازي : ويقال انحرف عنه وتحرّف واحرورف ، أي مال وعدل . (الرازي ، 1994م: ص 315) .

أما التحيز : فمعناه ترك الموضع إلى آخر ، أو ترك الفئة أو الطائفـــة إلى أخرى . (الفيروزآبادي ، 1917م : ص655) .

والإشارة في (يومئذ) إما أنها خاصة بيوم بدر ، أو أنها عامة والمقصود به يوم الزحف. (القرطبي ، د.ت : 383/4) .

﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾. المأوى : هو المرجع والملاذ ، والمعـــنى أن الفار إذا لم يقصد أحد الغرضين السابقين من التحرف والتحيز ، بل كان قصده مجـــر الارتداد للنجاة من القتل وهول الحرب ، فإنه عندئذ يؤتى عكس مقصوده ، لأنه يـــأوى بذلك إلى عذاب أشد وأقسى وأبقى وهو عذاب جهنم وبئس المستقر ذلك ، خاصة مع اقترانه بغضب الله سبحانه الذي يؤدي إلى الطرد من رحمته تعالى . (الفخر الـــرازي ، د.ت : 138/8) .

5,3,2 المعنى العام :

إن الآيات الكريمة هنا تجسد نعم الله في أسلحة النصر الفعلي التي وهبـــها المولى سبحانه لجنده المؤمنين ، وفيها يخبر الله تعالى نبيه بما أعده له عليه السلام وللمؤمنين من عون الملائكة لهم ونصرهم وتثبيتهم .

Prince of Songkla University Pattani Campus

لقد تمثل هذا العون الفعلي في اللقاء وعند التحام الصفوف ، بعد مقدماته التي تمثلت فيما ورد في الآيات السابقة من نزول المطر ، وتغشية النعاس ، وتماسك الأرض من تحت الأقدام ، وتقوية القلوب وتخلصها من رجز الشيطان .

تمثل هذا العون الفعلي في مدد الملائكة بما صدر إليهم من أوامر لتثبيت المؤمنين ، والمشاركة معهم بالفعل بضرب الأعناق ، وكل ذلك في إطار معية الله تعالى لهم وعونه ونصره وتأييده للجميع ، فكانت النتيجة نصراً عزيزاً شرح صدور المؤمنين ، وكان وبالاً إلى الكافرين الذين جاءوا لحرب الله ورسوله ، فأوتوا عكس مقصدهم ، ولحقتهم المذلة وجللهم العار . (المصري ، د.ت : ص65) .

والأمر لا يقتصر على ذلك ، فما عقاب الدنيا إلا مقدمة يسيرة ، لعقاب أكبر وأشد خزياً وذلاً وهو عذاب النار الذي أعد لهم يوم القيامة .

في هذه الآيات أيضاً نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن الانهزام أمام الكفار والفرار منهم إذا التقوا بهم في ميدان القتال ، وقد خاطبهم الله سبحانه بوصف الإيمان تهيجاً لهم وتحريضاً على تجنب ما نهاهم عنه ، وقد جاء هذا التحذير مقيداً بهيئة الزحف قبل القتال ، لأنه موطن الخوف الفعلي .

والآية تدل على عموم حكمها لكل المؤمنين وفي كل الأوقات ولكل الأسباب ، باستثناء سببين أو حالتين فقط هما الرجوع التحرف للقتال ، أي تعديل الصفوف أو تغيير الخطة ، أو انتهاز الفرص ، أو تدبير مكيدة ، أو التحيز إلى فئة من المسلمين أخرى غير فئته ، يحارب معهم ويتقوى بهم ويقويهم .

فالآية في مبناها ومعناها دليل على تحريم التولي يوم الزحف ، وهي تنهى المؤمنين عن الانهزام أمام الكفار إذا التقى الجمعان ، ما لم يكن التراجع عملاً لمصلحة القتال ذاته ، كأن يكون ذلك لاختيار وضع أفضل ، أو للانضمام إلى فئة أخرى من المدد أو غيره ، فإذا لم يكن الأمر كذلك فإن الفار يتوعده غضب الله ، وينتظره مستقر العذاب . (السيد جبريل ، 1983م : ص125) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

5,3,3 فقه الآيات :

ومن بين أسلحة النصر المتعددة ، التي وردت في الآية معونة للمؤمنين في غزوة بدر ، تبرز معية الله تعالى للملائكة ، في عونهم للنبي ﷺ ولأصحابه ، إطاراً عاماً يحيط بكل هذه الأسلحة ويعطيها فاعليتها وقوتها .

وإن إحساس المؤمن بهذه المعية ، لينطلق من إيمان عميق بقدرة الله وهيمنته ، وإنه أيضاً لينطلق بالمؤمن إلى آفاق الأرض يؤدى رسالته لا يمنعه مانع ، ويعوقه عائق .

أن الإسلام يقوم في انتشاره بالجهاد ، وأن هذا الجهاد ينطلق من عمومية الرسالة الإسلامية ، وختمها لكل رسالات الله إلى الناس ، وإذا كان كل فعل يقوم بتقييم فاعله ، وكل عمل ينجح بجد وإخلاص عامله ، فإن شخصية المجاهد كانت محل اهتمام الإسلام .

فهو يبني الشخصية ابتداء ببيان أن الجهاد أمر مفروض وهو من صميم الدين وليس من نافلته ، وهو يبنيها أيضاً ببيان صواب وصدق الإقدام عليه من غير مهابة ولا خوف ، لأن الشجاعة لا تقصر الأجل ، كما أن الجبن لا يطيله ، فأمر الآجال فقد حددها الله تعالى.

فإذا تقرّر هذا البناء برزت شخصية المجاهد عند تطبيقها مع استيعابها ، بروزاً يؤهله للتكليف الملقى إليه من خلال الآية الكريمة ، وهو الثبات والصبر والشجاعة وحسن البلاء في مواجهة الأعداء .

Prince of Songkla University Pattani Campus

5,4 ما نزل في رمي الرسول ﷺ المشركين بالحصباء :

قال تعالى : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18)﴾.

5,4,1 المعاني اللغوية :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾. ذهب المفسرون إلى بيان معنى الفاء في الآية إلى عدّة أقوال ، قال أبو حيان أن الفاء واقعة للربط بين الجمل ، لأن الله تعالى قال : ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ وكان امتثال ما أمر به سبباً للقتل ، فقيل : (فلم تقتلوهم) أي لستم مستقلين بالقتل لأن المعين عليه هو الله .(أبو حيان ، 1403هـ : 476/2) .

وذكر في فتح القدير إلى اسمية الجملة حيث قدر المبتدأ : أي فأنتم لم تقتلوهم . (الزمخشري ، 1995م : 294/2) .

وأيد الآلوسي رأي أبي حيان في توجيه الفاء . (الآلوسي ، د.ت : 184/9) .

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾. الخطاب هنا موجّه لرسول الله ﷺ إثر توجيه الخطاب السابق للمؤمنين ، وذلك نفي الاستقلال بالفعل والتأثير عنه ﷺ في الرمي بعد نفيه ذلك عن المؤمنين في القتل .

﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ﴾. البلاء هنا بمعنى العطاء الحسن ، فعله أبلى ، جاء في لسان العرب الإبلاء الإنعام والإحسان ، يقال بلوت الرجل ، وأبليت عنه بلاء حسناً . (ابن منظور ، 1992م : 355/1) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾. أي سميع لدعائهم واستغاثتهم في موطن الشدّة ، عليم بأحوالهم المستدعية لإجابة استغاثتهم .

﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾. المراد إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وإبطال مكرهم ، والكيد هو المكر مع التدبير والتحايل .

5,4,2 المعنى العام للآية :

يذكر الله تعالى في هذه الآيات الكريمة بالمؤثر الحقيقي للنصر يوم بدر ، وأنه وحده يملك أسباب النصر ، وقد حققها للمؤمنين في هذه الموقعة ، وأعزهم بعد ضعف وهوان ، ذكر ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ . (سورة آل عمران ، الآية : 123) .

وأن الآيات التي معنا تعرض ذلك من خلال رد المؤمنين إلى إطار العبودية التي ليس لها من دور سوى الأسباب العادية المألوفة ، وعلى ذلك فلم يكن لهم أن يتفاخروا فيما بينهم بما فعلوا ، لأن الفاعل الحقيقي هو الله تعالى ، وأنه فعل ذلك ليعزَّ المؤمنين ويثيبهم على صبرهم . (الزحيلي ، 1991م : 274/9) .

5,4,3 فقه الآيات :

الآية الكريمة في مجالها وموضوعها تعطي درساً في التواضع لأهل بدر ، الذين بلغ من إيمانهم وإخلاصهم وتضحيتهم وحسن بلائهم ما جعل الله يخبر رسوله ﷺ أنهم في موضع غفران الذنوب ، وأن لهم أن يعملوا ما شاءوا في إطار هذا الإيمان الناصع.

إنها تعطي هذا الدرس لأهل بدر ، ليفهم من يليهم من الأسلاف والأخلاف المستقبلة الذين نزل القرآن يخاطبهم ، ليعلم الجميع أن الفعل البشري مهما

Prince of Songkla University Pattani Campus

أتقن وبلغ فيه فإنه بغير الأمر الرباني وبدون التوفيق الإلهي يظل عارياً من التـــأثير في أدنى صورة فضلاً عن النجاح الكامل .

لقد أنتاب أهل بدر شيء من نشوة النصر والفرح به ، وهم الـــذين مـــا كانوا يتوقعونه بهذه الصورة القوية فأشرقت وجوههم بهذا النصر ، وامـــتلأت قلـــوبهم حماساً ، فاندفع بعضهم في غمرة هذا الحماس يذكر ما فعل ، وهنا كان لابد من ســـد باب تلك الذريعة ، فقد لا يعدو الأمر في أوله أن يكون حماساً وفرحاً ، ولكن يخشى أن ينقلب بعد ذلك عجباً وتكبراً وتفاخراً ، وليست هـــذه المترادفـــات واردة في قـــاموس الإسلام ولا طابع المسلمين . (ابن تيمية ، د.ت : 239/4) .

5,5 ما نزل في الاستفتاح :

قال تعالى : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

5,5,1 المعاني اللغوية :

﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾. الاستفتاح هو طلب الفـــتح ، وهو لون من الإنصاف في الدعاء ، والفتح من معانيه الحكم والقضاء ، قال ابن منظور : الفتّاح الحاكم ، وقال : وأهل اليمن يقولون للقاضي : الفتّاح . ويقول أحدهم لصاحبه : تعال حتى أفاتحك إلى الفتّاح ، ويقول : افتح بيننا أي احكم . وفاتحه مفاتحة وفتاحـــاً : حاكمه . (ابن منظور ، 1992م : 3339/5) . والخطاب للكافرين وهـــم جـــيش قريش المحارب يوم بدر .

﴿ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾. أي وإن تقلعوا عن كفركم ومعـــاداتكم للنبي ﷺ وللمؤمنين فذلك خير لكم ، أي أسلم وأفضل .

Prince of Songkla University Pattani Campus

﴿ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ ﴾. العود هنا مقصود به الرجوع إلى ما كانوا عليه من العناد والكفر والخروج للحرب ضد المؤمنين .

﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾. الإغناء هنا معناه الدفع ، أي لن يمكن لنصرائكم وأعوانكم وجمعكم أن يرد عنكم مصيركم المحتوم عندئذ ، حتى لو كثر هذا الجمع.

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾. أي أن نصر المؤمنين فيه أساسه معية الله لهم . (الجزائري ، 2003م : 436/2) .

5,5,2 المعنى العام :

في إطار استئناف الآيات لذكر أحداث غزوة بدر ، واستطراداً لسرد هذه الأحداث ، تحكي الآية التي معنا مشهداً حدث قبل التقاء الجيشين ، إنه مشهد المشركين يقرنون غرورهم واستكبارهم ، بأن ما هم عليه هو الحق ، ومن ثم كان استفتاحهم الذي تذكر بعض الروايات أن الذي قاله هو أبو جهل في ميدان القتال نفسه قبل اللقاء ، بينما تذكر بعض الروايات الأخرى أنه كان مقاله لجميع المشركين ، قالوه حول الكعبة قبل خروجهم .

وبالرغم أنه لا مانع من الجمع بين الروايتين بأن الاستفتاح قد حدث في الموضعين جميعاً ، من المشركين الذين كان استفتاحهم طلباً للنصر عند أستار الكعبة ، ثم بعد ذلك أبي جهل الذي كان استفتاحه طلباً للحكم بين الفرقين ولهزيمة أضل الفريقين وأقطعهم رحم ، وقد عماه غروره ، وغيّب عنه شيطانه حقيقة أمره .

أن الخطاب في الآية موجه لفريق الشرك على سبيل التهكم والسخرية ، ومعناه إن تطلبوا النصر لأهدى الفريقين ، فقد جاء بالفعل كذلك ، ولكنه لم يكن لكم ، بل كان للمؤمنين لأنهم على الحق وهم أقوم سبيلا ، ثم يستمر الخطاب لهم في سائر الآية أن تتوبوا وتعودوا إلى رشدكم وترجعوا عن عنادكم ، فذلك أفضل لكم .

Prince of Songkla University Pattani Campus

والغريب أن قريشاً كانت تعرف أنه لا طاقة لها بحرب الله ، ولكن غرورها وعنادها صوّر لها أنها تلقى محمداً مجرداً عن معونة الله تعالى له ولأصحابه ﷺ . (الزحيلي ، 1991م : 278/9) .

5,5,3 فقه الآيات :

والآية الكريمة تعرض موقف الإنسان عندما يزين له الشيطان سوء عمله فيراه حسناً ، ثم ينطلق في تصرفاته وحياته كلها وفق هذا الاعتقاد الباطل والتصور الخاطئ .

إن هذا الاعتقاد الباطل ، مع تلك الرؤية القاتمة ، هو الذي يحوِّل نزعات التكبر عند بعض الناس إلى طغيان ، فيتمادون في ضلالهم ، ويعتقدون أنهم فوق الناس وفوق الخلق جميعاً ، فهذا أبو جهل في استفتاحه قبل المعركة ويدعو بالنصر لأهدى الفريقين ، ما يكن شيطانه قد صوّر له أنه على الحق .

5,6 ما نزل في حض المسلمين في طاعة الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (26) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا

Prince of Songkla University Pattani Campus

اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29) ﴾ .

5,6,1 المعاني اللغوية :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ الجمهور على أن الخطاب هنا للمؤمنين المصدقين ، تجديداً للأمر بالطاعة والامتثال ، بعدما تجلت نعم الله تعالى عليهم في أحداث يوم بدر مما حكته الآيات السابقة ، وذكر السماع دلالة على توالي نزول القرآن عليهم ، أي لا تعرضوا والحال إنكم تسمعون القرآن يتنزل عليكم بما يشمل من الحجج والبراهين . (سيد طنطاوي ، 1988م: 88/6) .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾. والمراد بالذين قالوا سمعنا هنا ، اليهود والمنافقين والمشركين ، وجملة (وهم لا يسمعون) حال من ضمير قالوا : أي أنهم قالوا سمعنا ، والحال أنهم لا يسمعون حيث لا يصدقون ما سمعوه . (الزحيلي ، 1991م : 285/9) .

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ . المراد بالدواب هنا إما المعنى اللغوي ، أي شر من يدب على الأرض هم المتصفون بما ورد في الآية ، أو المعنى العرفي ، أي أن شر البهائم ، لأن المُعرض عن سماه الحق مع وجود أدواته يكون شراً من البهائم . والصم والبكم ، كناية عن عدم سماع الحق بقبوله ، وعدم النطق به اعترافاً وإذعاناً . (الجزائري ، 2003م : 437/1) .

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ . أي لو علم عندهم شيئاً من جنس الخير ، لأسمعهم سماع تدبر وفهم ، لكنهم جبلوا

Prince of Songkla University Pattani Campus

على العناد والإعراض وأصرّوا عليهما ، ولو أسمعهم لتولوا على أدبارهم ، والحال أنهم معرضون عمّا سمعوه بقلوبهم . (ابن القيم الجوزية ، 1993م : 330/2) .

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ .

الخطاب هنا كما ذكر القرطبي للمؤمنين المصدقين ، وقد نودوا بوصف الإيمان ، والنداء بهذا الوصف يكون من مطلوبات تحقيق الإيمان الصحيح . والاستجابة : الطاعة ، ومعنى استجيبوا : أجيبوا ، والمقصود بقوله (لما يحييكم) ما يشمل كل ما به حياة المؤمن ، عقيدة وشريعة وأخلاقاً . (ابن القيم الجوزية ، 1993م : 331/2) .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾. الحول من معانيه : التغيير ، والفصل بين الشيئين ، قال أبو بكر الرازي : حَالَ لونه : تغيّر واسودّ ، وحال الشيء أي حجزه ، يحول حولا وحِوَلا ـ بكسر الحاء وفتح الواو ـ أي تحوّل . (الرازي ، 1994م : ص 390) .

والمعنى المناسب للآية من بين هذه المعاني هو ، الحول بمعنى الفصل والحجز بين شيئين ، لكن على سبيل المجاز ، كما قال الآلوسي : مَن فصل بين شيئين كان أقرب إلى كل منهما من الآخر ، لاتصاله بهما ، وانفصال أحدهما عن الآخر . (الآلوسي ، د.ت : 19/9) .

والعبارة بهذا المعنى تحريض على الاستجابة خشية فوات الفرصة بحدوث التحول غير المتوقع ، ﴿ وأنه إليه تحشرون ﴾ أي أنكم سوف تساقون إليه سبحانه يوم القيامة لا إلى أحد غيره ، فيجازيكم بحسب مراتب أعمالكم .

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾. قال الأزهري : جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار ، وأصلها ما أخذ من قولك : فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار لتمييز الرديء من الجيد ، والفتنة الضلال والإثم ، والفتنة ما يقع بين الناس من القتال ، والفتنة أشد من القتل. (ابن منظور ، 1992م : 3345/5)

وأن الإصابة بها على معنى الاختبار تكون على تقدير أثرها ، أي اتقوا آثار فتنة لا تصيبن الذين ظلموا خاصة .

Prince of Songkla University Pattani Campus

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ . الخطف هو الأخذ بسرعة ، والخطاب إما للمهاجرين ، وعليه يكون المقصود بـ (الأرض) أرض مكة ، والمقصود بـ (الناس) كفار قريش ، وإما أنه للمهاجرين والأنصار ، وعليه المقصود بـ (الأرض) الجزيرة ، والمقصود بـ (الناس) كفار العرب جميعاً ، وإما أنه للعرب كافة والأرض جزيرتهم ، والناس هم فارس والروم .

فعلى الوجه الأول يكون قوله تعالى (فآواكم) إلى المدينة (وأيدكم بنصره) في بدر (ورزقكم من الطيبات) بما أحل لكم من المغانم ، ويستقيم ذلك أيضاً على الوجه الثاني ، أما على الوجه الثالث ، فيكون (آواكم) أي إلى الإسلام ،(وأيدكم بنصره) بعد ذلك (ورزقكم من الطيبات) بما يسّر لكم من نعم العيش . (الآلوسي ، د.ت : 194/9)

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.الخون اصله النقص ، كما أن الوفاء أصله التمام . قال ابن منظور : وتخوّنه وخوّنه وخوّن منه : نقصه ، يقال : خانني فلان حقي إذا تنقصك . (ابن منظور ، 1992م : 1295/2) .

ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء ، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان ، أي لا تخونوا هما بتعطيل فرائض الله وسنن رسوله ﷺ.

والأمانات كل ما يؤتمن عليه الإنسان من قبل الله تعالى ورسوله ﷺ ، وتعم كذلك ما يؤتمن عليه من قبل الناس .

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾. الفرقان في أصل اللغة ، الفصل بين الشيئين أو الأشياء . قال ابن منظور : والفرق تفريق بين الشيئين حين يتفرقان ، والفرق الفصل بين الشيئين ، فرق يفرق فرقاً : فصل . (ابن منظور ، 1992م : 3398/5).

Prince of Songkla University Pattani Campus

والقضية الشرطية التي جاءت بها الآية ، شرطها واحد ، وهو تقـــوى الله تعالى ، أما جزاؤها فيمتثل في أمور ثلاثة : أولها ما ذكر من جعل الفرقان لمن يفعل ذلك ، ثانيها : تكفير السيئات ، ثالثها : الغفران .

5,6,2 المعنى العام :

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين في هذه الآيات ، بطاعته وطاعة رســـوله ، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين المعاندين له ، وقد جاء هذا الأمر بعد استكمال مقدماته الممهدة له ، فلقد سبق استعراض أحداث معركة بدر بملابساتها مـــن عـــون الله تعالى للمؤمنين ومدده إياهم .

والملاحظ أن الأمر بالطاعة هنا جاء مطلقاً بدون تحديد لأشـــياء بعينـــها تكون مجالاً لهذه الطاعة ، وذلك يعني شمول هذا الأمر لكل ما صدر عن رسول الله ﷺ مما يبلغه عن ربه تبارك وتعالى من أمور الدين التي يكلفون بالعمل بها .

وكذلك يقترن هذا التحذير من الإعراض بتحذير آخر ، أن يكون مبناه ومنطلقه من التشبه بأناس لهم أسماع صموها عن سماع الحق ، وألسنة ناطقـــة ربطوهـــا وعقدوها عن النطق به ، لأنهم لما فعلوا ذلك بأدوات حسهم وإدراكهم ، صاروا كأنهم فاقديها ، وأصبحوا كالأنعام بل هم أضل .

وفي الآيات أيضاً خاطب الله سبحانه وتعالى المؤمنين ، فحثهم على إجابة الرسول ﷺ فيما يدعوهم إليه ، وإطلاق اللفظ مع تحديد ملامح ما يدعون إليه بأن فيه حياتهم ، ثم أخبر الله تعالى أن قلوب العباد بيده ، وأنه أقرب إليهم من أنفسهم ، وأنـــه متمكن بهم ، بل من مشاعرهم وخلجات أنفسهم . (ابن القيم الجوزيـــة ، 1993م : 333/2) .

ثم تختم الآية بموجب آخر من موجات المسارعة إلى الامتثال ،وهو تقرير المعاد ، وأن المرد إلى الله تعالى بعثاً ، وحشراً ، وحساباً .

Prince of Songkla University Pattani Campus

وفي الآيات أيضاً يحذر الله تعالى عباده المؤمنين من نار الفتن التي يتطـــاير شررها في حقب الدهر المتوالية ، وقد وضح من معاني الفتنة أنها تشمل كل مـــا يـــسوء الإنسان في حياته ، ويعوق مسيرته الإيمانية عن الانطلاق ، إنها الفتن بكل صورها .

وقد أكثر المفسرون في تحديد المقصود بهذه الآية ، فالتحـــذير لا يقـــف بالمؤمنين عند واقعة بعينها ، إنما يشمل كل أجيالهم في جميع أزمانهم ، وهذا ما رجحه ابن كثير فقد قال : بعد استعراض لأقوال العلماء في تحديد المقصودين بالفتنة . (والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم ، وإن كان الخطاب معهم هو الصحيح ، ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن) . (ابن كثير ، 1996م : 299/2) .

والآية في تحذيرها تركز على أمرين :

الأول : أن نار الفتن عندما يتطاير شررها ، فإنه لا يفرق بين ضالع فيها ، أو راض عنها ، أو ساكت عن دفعها ، أو بعيد عنها ، بل الكل يصطلى بنارها .

الثاني : أن تلك العقوبة لا يقتصر تنفيذها على الدنيا وحدها ، أو الآخرة وحدها ، وإنما يمتد ليشمل الدنيا والآخرة معاً .

ثم تنبه الآية أن هذا العذاب الذي يصيب محدثي الفتنة وغيرهم في الدنيا ، لن يعفيهم بحال من عقاب الله الشديد في الآخرة ، حيث الحساب والجزاء .

وفي الآيات تعدد أقوال العلماء في المراد بالمخاطبين ، هـــم المهـــاجرين فحسب ، أم هم المؤمنين جميعاً ، أو هم العرب كافة .

وإذا كان لنا أن نرجح من بين أقوال العلماء واحداً ، فإن ما ورد فيه نص يكون أولى مما لم يرد فيه نص ، وقد ورد من ا لنصوص ما يؤيد العمـــوم في الخطـــاب لعرب الجزيرة .

فقد أخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمي في مسند الفردوس عـــن ابـــن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ في قوله : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ﴾ قيل يا رسول الله : ومَن الناس ؟ قال : أهل فارس . (رشيد رضا ، د.ت : 590/9) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

وقد عرفنا فيما سبق معنى الخيانة وما تشمل فيه ، ومعنى الأمانات ومـــا تشمله ، وباعتبار هذه الأمور معاً تكون الآيات نهياً للمؤمنين من أن يسلكوا سبيل الخيانة لله ورسوله ، وذلك بتعطيل فرائضه ، أو تعدي حدوده ، أو انتهاك محارمه التي بينها الله في القرآن وفصلها لهم رسول الله ﷺ .

فالتكاليف الشرعية بمفهومه الواسع من عبادات ومعاملات وأخلاق أمانة ، والالتزامات المادية والأدبية الناشئة عن الثقة في التعامل بين المؤمنين ، أمانـــة يجـــب أن تؤدى ، وأن يرعى جانبها ، والأعيان المادية بخصصها أمانة لا ينبغي أن تجحد .

ينتقل السياق بعد ذلك إلى التحذير مما يدفع إلى ارتكاب الخيانة المنـــهي عنها فيما سبق ، وهو الافتنان بالأموال والأولاد . يقول الفخر الرازي : ثم أنه لما كـــان الداعي إلى الإقدام على الخيانة هو حب الأموال والأولاد ، نبه على أنه يجب على العاقل أن يحترز عن المضار المتولدة من ذلك الحب . فقال ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنـــة ﴾ لأنها تشغل القلب بالدنيا ، وتصير حجاباً عن خدمة المولى . (الفخر الـــرازي ، د.ت : 152/15) .

ثم تسوق الآيات آخر وصايا للمؤمنين في هذا السياق ، وهي أعم الوصايا وأشملها ، والأصل الجامع لها ولغيرها ، بعد سلسلة من التوجيهات الإلهية .

جاءت الآيات بالإطار العام الذي يشمل الطاعة ويوضحها بمعناها الواسع ، هذا الإطار تمثل في التوى التي جاء لفظها مطلقاً جامعاً ، ليشمل كل ما يجب أن يتقى بمقتضى دين الله وشرعه ، وبمقتضى سننه في نظام خلقه ، ثم رتبت بعد ذلك ألواناً مـــن الثمرات الطيبة ، أولها الفرقان ، ولقد جاء هذا الفرقان بلفظ مطلق ممـــا جعـــل أقـــوال المفسرين تتعدد في تفسيره على أوجه كثيرة .

قال ابن اسحاق : فرقاناً فصلاً بين الحق والباطل . وقال السدي : نجاة . وقال الفراء : فتحاً ونصراً . وقيل : في الآخرة فيدخلكم الجنة ، ويدخل الكفار النار . (القرطبي ، 1996م : 396/7) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

ويختار الشيخ محمد رشيد رضا للفرقان معنى يرى أنه أولى من كل ما ذكر ، فيقول في تفسيره : يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى ملكة من العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطل ، وتفصلون بين الضار والنافع ، وتميزون بين النور والظلمة ، وتزيلون بين الحجة والشبهة . (رشيد رضا ، د.ت : 597/9) .

5,6,3 فقه الآيات :

أن سورة الأنفال _ كما سبق أن بيَّنا _ جاءت لتقرر قضايا رئيسية تتعلق بالحرب والسلام وما يتفرع عنهما ، وذلك من خلال استعراضها لحدث من أهم الأحداث التاريخ الإسلامي ، وهو لقاء الحق والباطل في بدر يوم الفرقان .

وفي طريقها إلى تأسيس المفاهيم الإسلامية في هذه القضايا وتقريرها ، عرضت السورة للشخصية المؤمنة ، لأنها هي التي يناط إبراز هذه القضايا ، والقيام بتطبيقها في الواقع الاجتماعي .

والآيات التي معنا تشترك في إبراز هذه الشخصية من خلال ما ينبغي أن تكون عليه ، وما تؤديه من مطلوبات الإيمان ومقتضياته من جهة ، ومن خلال النعي على مَن يهدر نعم الله عليه ، وعدّه من أشر أنواع الدواب من جهة أخرى .

إن الله سبحانه قد خلق الإنسان ، وفضله على سائر خلقه ، وميّزه وكرّمه بنعمة العقل ، وبهذه النعمة استحق أن يكون سيداً لهذا الكون ، وبها استخلفه الله في الأرض .

يقول الشيخ سيد سابق[134] : أن لكل عضوا وظيفة ، ووظيفة العقل هي التأمل والنظر والتفكير ، وإذا تعطلت هذه القوى بطل عمل العقل ، وعطل من أهم وظائفه ، وتبع ذلك توقف نشاط الحياة ، مما يتسبب عنه الجمود والموت والفناء ،

---

[134] الشيخ سيد سابق ، أحد علماء الأزهر الذين تخرجوا من كلية الشريعة ، وقد اتصل بالإمام حسن البنا وبايعه على العمل الإسلامي ، اشتغل بالفقه أكبر مما اشتغل إخوانه الأزهريين ، وقد اعتمد منهجاً يقوم على طرح التعصب للمذاهب ، انتقل إلى جوار ربه مساء الأحد 23 من ذي القعدة 1420هـ عن عمر يناهز 85 سنة .

Prince of Songkla University Pattani Campus

والإسلام أراد للعقل أن ينهض من عقاله ، ويفيق من سباته ، فدعا إلى النظر والتفكـــر ، وعدّ ذلك من جوهر العبادة . (سيد سابق ، د.ت : ص 19،20) .

وفي الآيات إشارة إلى أن الإيمان حياة القلوب ، تلك قـــضية تعرضـــها الآيات لتبين مكان الإيمان بين الضرورات في حياة المؤمن ، وأنه رأس هذه الضرورات ، فبدونه لا تعتبر حياة المؤمن بالمعنى الحقيقي .

قال الإمام ابن الجوزية[135] : والآية تتناول هذا كله ، فإن الإسلام والقرآن والجهاد يحي القلوب الحياة الطيبة ، وكمال الحياة في الجنة ،والرسول ﷺ دعي إلى الإيمان وإلى الجنة ، فهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة ، والإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة : حياة بدنه التي بها يدر النافع والضار ، ويؤثر ما ينفعه على ما يضره ، وحيـــاة قلبـــه وروحه به يميز بين الحق والباطل ، والغي والرشاد ، والهدي والضلال ، فيختار الحق على ضدّه . (ابن الجوزية ، د.ت : ص89) .

بذلك تتضح معنى حقيقة الإيمان في حياة المؤمن ، إنـــه الحيـــاة ذاتهـــا ، والمسلمون اليوم أكثر من أيّ وقت مضى في حاجة إلى إدراك هذه الحقيقـــة ، بعـــد أن تنازعتهم الأهواء ، وأفرقتهم الماديات ، فصار حالهم إلى ما نرى تنقصها الروح الباعثة .

وفي الآيات أيضاً تقرير قاعدة عامة من قواعـــد البنـــاء الاجتمـــاعي في الإسلام ، وهي مسئولية الجماعة المسلمة في محاربة الانحراف والوقوف في وجه المنكـــر عندما يشيع ويعم ، خشية هلاك المجتمع كله بسبب طائفة من طوائفه ، إنهـــا مـــسئولية جماعية ، ومسئولية تضامنية ، في نفس الوقت لا يجوز لمؤمن أن يتقاعس عن الاضـــطلاع بدوره فيها انتظاراً لغيره ، لذلك جاءت الأحاديث تقرّر ضرورة القيام بهذه المـــسئولية ، وتحذر من خطر إهمالها . (المصري ، د.ت : ص82) .

---

[135] هو الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المشهور بابن القيم الجوزية ، نسبة إلى مدرسة أنشأها محي الدين الجوزي المتوفي 636هـــ ، ولد في قرية زرع جنوب شرق دمشق ، تتلمذ من طائفة من العلماء منهم الشيخ ابن تيمية سنة 712هـــ إلى وفاته ، توفي رحمه الله في شهر رجب سنة 751هـــ ودفن بالباب الصغير في دمشق .

Prince of Songkla University Pattani Campus

تلك هي القاعدة الإسلامية في مواجهة الانحراف ، تقرر مسئولية الجماعة ، وإلاّ عمَّ العقاب للجميع ، لأن الساكت عن دفع هذا الانحراف بالعمل أو القول فقد شارك معه في هذا الوزر وكان استحقاقه للعقاب .

وأثارت الآيات أيضاً قضية الأمانة ، وقد أفاض المفسرون في شرحها باعتبارها خلقاً إسلامياً ، وأن الأمانة بهذا المفهوم لا تقتصر على كونها ضرباً من أخلاق المؤمن ، وإنما هي من مقتضيات الإيمان ذاته التي لا يصدق بدونها .

وذلك يستند إلى نداء المخاطبين المطالبين بالحفاظ عليها ، بصفة الإيمان مما يوحى بأنها من مطلوباته اللازمة ، وهذا الفهم ليس غريباً عن روح الدين ، بل نصّ الرسول ﷺ على اعتبار الأمانة من مقتضيات صدق الإيمان .

تلك هي منزلة الأمانة في حياة المؤمن ، فعليه أن يتعامل معها على أساس من هذا الفهم .

وعرضت الآيات أيضاً قضية التقوى ، وهي من قضايا الجوهر في الدين الإسلامي ، والمتأمل في ورود مادتها في القرآن الكريم ، يجد أنها تجمع أطرافاً عديدة من الغايات لكثير من أركان الشريعة الإسلامية ، ففي مجال العبادات تبرز التقوى غاية لفريضة الصيام ، والصلاة ، والحج وغيرها ، وفي مجال المعاملات أيضاً تبرز التقوى عنواناً للعدل في التداين ، وفي مجال العقوبات تبرز التقوى غاية في رأس العقوبات ، وفي مجال الأخلاق تبرز التقوى غاية للإقلاع عن كل خلق سيئ وغيرها من المجالات .

إن التقوى هي مخافة الله تعالى ، وإذا خاف الإنسان ربه ، فقد أصبح قريباً من كل خير ، بمنأى عن كل شر ، وذلك هو مطلوب الإيمان النهائي من كل من ينتسب إليه . (السيد جبريل ، 1983م : ص181) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

5,7 ما نزل في ذكر نعم الله على الرسول ﷺ :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (31) ﴾.

5,7,1 المعاني اللغوية :

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾. أصل المكر الخداع ، قال ابن منظور : المكر الخديعة والاحتيال ، مكر يمكر مكراً ومكر به . (ابن منظور ، 1992م : 4247/6) . وتآمر الكفار بالنبي ﷺ كان مبنياً على الاحتيال والكيد له بما ورد في الآية .

أما الإثبات المأخوذة من قوله ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ فقد اختلف فيه أقوال المفسرين لكنه اختلاف لا يؤدي إلى تعارض في المعنى النهائي ، فذهب الحسن ومجاهد وقتادة إلى أن معناه : التقييد بشد الوثاق ، وروى عن ابن حبّان ابي حاتم والجبائي أن معناه : الإثخان بالجراح ، من قولهم ضربته حتى أثبته لا حراك به وبراح . (الزحيلي ، 1991م : 304/9) .

قال ابن منظور : رجل ثبت المقام : لا يبرح ، والمثبت : الذي ثقل و لم يبرح الفراش ، والثبات سير يشد به الرحل ، وجمعه أثبته ، ورحل مثبت مشدود بالثبات. (ابن منظور ، 1992م : 468/1) .

قال الآلوسي بعد أن استعرض الأقوال السابقة : وكل الأقوال ترجع إلى أصل واحد وهو جعله ﷺ ثابتا في مكانه أعم من أن يكون ذلك بالربط أو الحبس أو الإثخان بالجراح حتى لا يقدر على الحركة . (الآلوسي ، د.ت : 197/9) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾. أن سبحانه وتعالى ردّ مكـــرهم علـــيهم ، وإيقاع عاقبته بهم ، ومجازاتهم بمقتضاه . وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . فلا يعتد بمكـــرهم أمـــام تدبيره سبحانه وتعالى .

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾. الآيات جمع آية ، وهي آيات القرآن الكريم عندما كانت تنزل على الرسول ﷺ فيتلوها عليهم فيقول هذا القول الذي ينبئ عن التكـــذيب والاســـتهزاء ، والأساطير هي الحكايات الملفقة . قال أبو بكر الرازي : والأساطير ، الأباطيل ، الواحد أسطورة بالضم وإسطارة بالكسر . (الرازي ، 1994م : ص163) .

5,7,2 المعنى العام :

إن ظاهرة الامتنان الإلهي واضحة من أول السورة ، ولا عجب في ذلـــك فقد تناولت السورة أحداث النصر الأعظم في الإسلام ، وذلك النصر الذي يرجـــع إلى التأييد الإلهي في أسبابه وفي جوهره ، حتى فيما يتعلق بالجانب البشري ودوروه في المعركة ، فإنه كان ذا أثر فعال بفعل الله تعالى .

ومن قبل هذا النصر العظيم ، كانت هناك مقدمات التي ساقها الله أيضاً ، ومن أهمها نصر الله لرسوله ﷺ في خروجه سالماً من مكة وقد دبّر الكفار لقتلـــه ليلـــة الهجرة ، والآيات تعرض لوناً آخر من ألوان مكرهم بذات النبي ﷺ بالتدبير لقتله لولا أن نجاه الله تعالى من بين أيديهم هذا من جهة ، ومن جهة أخرى مكرهم في دين محمد ﷺ وذلك بمحاولة تسفيه الوحي الذي يترل عليه ببيان أنه مختلق القول ، أو أنـــه حكايـــات يمكن القصاص أن يتحدثوا بمثلها . (السيد جبريل ، 1938م : ص 184) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

5,7,3 فقه الآيات :

ودرس الآية هزيمة الباطل مهما عظمت سطوته ، وهـو درس يمثـل في جوهره سنة من سنن الله التي أقام عليها كونه وأمضاها في خلقه لا يعتريهـا تغـيير ولا تبديل .

فمنذ هبط آدم إلى الأرض ، وبنوه تتنازعهم عوامل الخير والشر ، وعلى طريق الحياة الطويل وتاريخها الممتد ، بعث الله الرسل لتأصيل عوامل الخـير في البـشر ومحاربة نزعات الشر فيهم عن طريق هدى الله الذي جاءوهم به ، ولكن عبّـاد الـدنيا وسدنة الجاه والسلطان كانت تسؤ هم دعوات الأنبياء إلى الخير الذي يستوي فيه كـل الناس ، فكانوا تجبرون ويستكبرون ويأنفون من اتباعهم ، فكـانوا يحـاربون الأنبيـاء ويواجهونهم بالأذى وبما يكرهون ، ليسلم من ذلك نبي أو رسول .

إنه درس اليوم المستضعفين الذين يروعهم ما آل إليه أمر الباطل من انتشار ، لئلا ينتابهم اليأس من نصر الله ، كل ما يطلب منهم أن يكونوا أهلاً لهـذا النـصر ، والطريق إلى ذلك معروف تكفل ببيانه كتاب الله تعالى وبيّنه سنة الرسول ﷺ .

5,8 ما نزل في غرّة قريش واستفتاحهم :

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَـارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّـهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُـونَ (34) وَمَـا كَـانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (35) ﴾.

Prince of Songkla University Pattani Campus

5,8,1 المعاني اللغوية :

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾. دعاء على أنفسهم بالهلاك من جهة التصريح بأن يمطروا حجارة ، ومن جهة استخدام الأمطار بدل من مطر ، لأن الثاني يكون في الرحمة ، بينما يستعمل الأول في جانب العذاب ، قال ابن منظور : أمطرهم الله في العذاب خاصة ، لقوله تعالى : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ .(سورة النمل : الآية 58) . (ابن منظور ، 1992م : 4223/6) .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾. الكلام يحلها على وجهين :

أحداها : في الإستغفار الدافع للعذاب .

الثاني : في العذاب المدفوع بالإستغفار .

أما الأول ، فإن العذاب إنما يكون على الذنوب ، والإستغفار يوجب مغفرة الذنوب التي هي سبب العذاب فيرفع العذاب .

أما الثاني ، العذاب المدفوع فهو يعم العذاب السماوي ، ويعم ما يكون من العباد ، وذلك أن الجميع قد سمّاه الله عذاباً. (ابن تيمية ، د.ت : 341/4). المراد بالعذاب هنا عذاب الاستئصال ، والآية جواب لقولهم المتناهي في القبح وبيان سبب إمهالهم ، والتوقف في إجابة دعائهم .

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾. المراد بالعذاب هنا عذاب الاستئصال ، والآية جواب لقولهم المتناهي في القبح وبيان سبب إمهالهم ، والتوقف في إجابة دعائهم . والقراءة على إثبات (أن) في قوله ﴿ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ﴾ وأنها أصلية ، والمعنى أي شيء يمنع من إيقاع العذاب بهم عند زوال سبب رفعه عنهم .

Prince of Songkla University Pattani Campus

وجملة ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ حال من الضمير في ﴿يُعَذِّبَهُمُ ﴾ أي حال كونهم مستحقين لذلك بصدهم ، ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ مبينة لعظم شناعة صنعهم في الصد ، فإن صدهم عن المسجد الحرام مع عدم استحقاقهم لولاية أمره فعل في غاية القبح .

﴿ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيه حكم بجهل أكثرهم بهذه الحقيقة ، ومفهومه على بعضهم ، ولكن حال بينهم وبين حركة العناد والجمود .

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ المكاء هو الصفير ، والتصدية التصفيق ، واستثناء هذه الأفعال من الصلاة مع أنها ليست من جنسها ، إما لأنهم كانوا يعتقدون أن ذلك من جنس الصلاة فجاء الكلام على حكاية اعتقادهم ، أو أن من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له .

﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ الباء في قوله ﴿ بِمَا كُنْتُمْ ﴾ للسببية ، والفاء في قوله ﴿فَذُوقُوا﴾ إذا أريد بالعذاب عذاب الآخرة تكون للسببية كالباء، وإذا أريد به عذاب الدنيا تكون للتعقيب[136] .

5,8,2 المعنى العام :

أنه لغاية الجهل أن يستفتحوا على أنفسهم بالهلاك أن كان ما يدعون إليه هو الحق ، لأن البداهة كانت تدعوهم إلى غير ذلك ، وهو أن يدعوا لأنفسهم بالهداية في هذا الموطن .

لذلك فإن من طريف ما نقلته كتب التفاسير من محاورات دارت حول هذا الموقف ما ذكره القرطبي في قوله : حكي أن ابن عباس لقيه رجل من اليهود ، فقال

---

[136] أنظر هذه التخريجات : الجامع لأحكام القرآن 400/7) . روح المعاني (202،204/9) مفاتيح الغيب (160/15) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

اليهودي : ممن أنت ؟ قال : من قريش ، فقال : أنت من القوم الذين قالوا : (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) الآية ، فهلا عليهم أن يقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ، إن هؤلاء قوم يجهلون ، قال ابن عباس : وأنت يا إسرائيلي من القوم الذين لم تجف أرجلهم من بلل البحر الذي أغرق فيه فرعون وقومه ، وأنجى موسى وقومه ، حتى قالوا : (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) فقال لهم موسى : (إنكم قوم تجهلون) . (سورة الأعراف : الآية 138) فأطرق اليهودي مفحما . (القرطبي ، 1996م : 398/7) .

وبرغم هذا الجهل فإن رحمة الله تعالى أمهلتهم ، وجاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ وهذا هو المانع الأول من إجابة استفتاحهم وتلك سنة الله في كل أنبيائه قبل محمد ﷺ ، فإنه لم يعذب أهل قرية إلا بعد أن يخرج رسولهم منها ، أما المانع الثاني فيتمثل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

قال الفخر الرازي : وفي تفسيره وجوه ، الأول : وما كان الله معذب الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون ، فاللفظ وإن كان عاماً إلا أن المراد بعضهم كما يقال : قتل أهل المحلة رجلاً ، والمراد بعضهم ، والثاني : وما كان الله معذب هؤلاء الكفار في علم الله إنه يكون لهم أولاد يؤمنون بالله ويستغفرونه . (الفخر الرازي ، د.ت : 158/15) .

فالآيات كما سبق استفتاح الكفار على أنفسهم بالهلاك إن كان ما يدعون إليه هو الحق ، ثم إمهال الله تعالى لهم بما سبق من أسباب ليس من بينها شيء يمد إلى ذواتهم بأدنى صلة ، وتواصل الآيات توضيح هذه الحقيقة .

إنه لا يمنع العذاب عنهم كرامة يتميزون بها ، فالذي يدعو إلى تكريمهم وقاموا بواجبه هو نفسه الذي دعا إلى تعذيبهم عند إهمال حقه ، وأنهم صدوا عن المسجد الحرام كل مَن عرف حقه وعظمه كما يليق به .

Prince of Songkla University Pattani Campus

وقد تعددت أقوال العلماء في حقيقة هذا الصد ، فقد ذكر أبو السعود العمادي : أن ذلك كان بإلجائهم النبي ﷺ ومن معه إلى الهجرة وإبعادهم من جوار البيت .(أبو السعود ، د.ت : 486/2) .

وذكر الشوكاني : أن هذا الصد عام الحديبية ، عندما منعوا النبي ﷺ وأصحابه من البيت ، ثم بعد ذلك حكى عروة بن الزبير في قوله : ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي من آمن بالله وعبده ، أنت ومن اتبعك . (الشوكاني ، 1997م : 305/2) .

وعلى ذلك فمن كان هذا فعله ، فإنه أبعد الناس عن ولاية البيت ، لأن هذا البيت المعظم ما جعل إلا للعبادة والحج وتعظيم الله عنده وتوحيده وتنزيهه ، فإذا قام على أمره من يهدر هذا الهدف ويقيم ضده من الشرك والفساد فليس وليّاً وله .

ثم تسوق الآية التالية تأكيداً لانتفاء هذه الولاية عنهم ، وإثباتها للمسلمين ، ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ وهو ضرب من الهرج الذي لا يليق بحرمة البيت ولا كرامته ، ولا بقدر من يعبد عنده وهو الله تعالى .

والعذاب يترتب هنا على ما قيل في الصد عن المسجد الحرام ، فعند من قال بأن الصد ما حدث عام الحديبية ، يكون العذاب هنا ما لاقوه من ذل الهزيمة في فتح مكة ، وهو مرجوح ، وعند من قال بأن الصد هو ما حدث منهم عموماً قبل النبي ﷺ والمسلمين في مكة ، يكون العذاب هنا ما حدث يوم بدر ،وهو الأنسب ، ومع ذلك كله لهم عذاب الآخرة . (ابن الجوزية ، 1993م : 237/2) .

5,8,3 فقه الآيات :

المتأمل فيما يراد بالقرآن من سلب تأثير آياته على نفوس مستمعيه يجد أن اليوم يشبه الأمس .

Prince of Songkla University Pattani Campus

فإذا كان النضر بن الحارث وأمثاله من الذين حاولوا صرف الناس عن القرآن ، بادعاء أن ما فيه من قصص الأنبياء والأمم السابقة ما هي إلا أكاذيب وروايات لا أصل لها ، هذا ما فعلوه في عهده ﷺ ، فإن محاولاتهم لم تتوقف من يومها حتى الآن .

واليوم يعيد أعداء الإسلام كرتهم ، فلقد حاولوا حتى حققوا أثراً لا يستهان به في مجال صرف المسلمين عن القرآن حتى لا يكون مصدر التوجيه في حياتهم ، وجعلوا لهم أبدالاً يتلقون منها التوجيه في شئون الحياة كلها .

لقد تحول القرآن عند المسلمين إلى تراتيل يترنم بها القراء ويطرب لها المستمعون طرباً متجرداً عن الفهم في أدنى صورة ، أو التأثر في أقل درجاته ، وتحول كذلك إلى تمائم وتعاويذ يضعها الناس في جيوبهم وفي صدورهم وتحت وسائدهم . (سيد قطب ، 1402هـ : 1503/3) .

والآيات الكريمة تقرر حقيقة تعتبر أساساً من الأسس التي يقوم عليها الإيمان ، تلك الحقيقة هي أن الولاية الحقيقية لكل ما يخدم الدين هي ما كان منطلقها الإخلاص والتقوى لا الجوار ولا المكان .

فالله تعالى لا يحاسب الناس وفق أنسابهم ولا مكانتهم الدنيوية ولا أوضاعهم الاجتماعية ، وإنما يحاسبهم وفق أعمالهم ونواياهم ، فليس هناك دخل لقرابة أو نسب في ثواب ولا عقاب ، فقد نفت الآيات ولاية المشركين على البيت رغم أنهم ظلوا ألصق به الناس زمناً طويلاً ، لأنهم بدلاً عن أن يعرفوا له حقه تعظيماً وخدمة لمن يعظمه ، اعتبروا أنفسهم سادة وملاكاً يقربون من شاءوا ويبعدون من شاءوا ، لم يكن لهذه الجوار اعتبار في إحقاق الحق ، وذاق هؤلاء عذاب الصد ، وانتفى عنهم شرف لم يستحقوه ، وأثبت لمن هم أهله على الحقيقة وهم المتقون .

وتسع هذه الحقيقة لتشمل كل ولاية للدين ، وكما قلنا ليس هناك دخل لقرابة أو لنسب في ثواب ولا عقاب ،وقد قررت الآيات ذلك كمبدأ عام .

إن في ذلك لعبرة للمسلمين الآن وفي كل حين ، أن يجعلوا مقياس الفضل فيما بينهم العمل الصالح ، والنية الحسنة ، والإخلاص للدين ، والغيرة عليه ، والدعوة إليه

، كل ذلك بدلاً من تفاخرهم بأنسابهم أو مكانتهم أو أموالهم ، فإنها لا تزن عند الله يوم الحساب جناح بعوضة . (السيد جبريل ، 1983م : ص 201) .

5,9 ما نزل فيمن عاونوا أبا سفيان :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (37) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (38)﴾

5,9,1 المعاني اللغوية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ سبيل الله هو دين الإسلام الذي بعث به النبي ﷺ ، والصد عنه هو المنع منه إما بحرب من يدعون إليه ، وإما باضطهاد من يدخل فيه وينتسب إليه ، والغرض من إنفاق الأموال بحسب الواقع العملي هو الصد عن سبيل الله ، وإن لم يكن كذلك في اعتقادهم . (الآلوسي ، د.ت : 204/9) .

﴿ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ معنى (ثم) في الموضعين كما قال الشوكاني : (إما التراخي في الزمان لما بين الإنفاق المذكور وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد ، وإما التراخي في الرتبة لما بين بذل المال وعدم حصول المقصود من المباينة) . (الشوكاني ، 1997م : 306/2) . والحسرة هي ، الندم والغم الذي خلفه فوات الغرض الذي أملوا فيه) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ المعنى أن الكفار الذين اتصفوا بهذا الصفات ليس لهم محشر إلا جهنم .

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) التمييز : هو الفصل والتفريق بين الأشياء ، قال ابن منظور : ميزت الشيء أميزه ميزاً ، عزلته وفرزنه ، وكذلك ميزته تمييزاً فانماز ، وقال ابن سيده : ماز الشيء ميزاً وميزة ، فصل بعضه من بعض) . (ابن منظور، 1992م : 4307/6) .

﴿ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ يركمه أي يجمعه ، قال ابن منظور : (الركم جمعك شيئاً فوق شيء ، حتى تجعله ركاماً مركوماً ، كركام الرمل والسحاب ونحو ذلك من الشيء المرتكم بعضه على بعض ، وارتكم الشيء وتراكم إذا اجتمع) . (ابن منظور ، 1992م : 1721/3) .

والإشارة ﴿ أُولَئِكَ هُمُ﴾ إما إلى الفريق ، لأنه في معنى الجمع ، أو إلى المنفقين ، وأشير إليهم بما يفيد البعد ، لبيان بعد درجتهم في الخبث باعتبار الصفة ، وفي الخسران باعتبار العاقبة .

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ الجماعة على القراءة بـ (ينتهوا) وعليه فالرسول ﷺ مأمور بأن يبلغهم مضمون هذه العبارة ، سواء قاله بهذه الألفاظ أم بغيرها ، وقرأ ابن مسعود : (إن تنتهوا يغفر لكم) بالخطاب والتبليغ على ذلك لا يأتي إلا بهذه العبارة ، وقُرئ : (نغفر لهم) على أن الضمير لله عز وجل) . (الآلوسي ، د.ت : 306/9) .

﴿ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ السنة المذكورة وهي سنة الله تعالى في هلاك المكذبين ، ومعنى مضائها أي تحققها فيما سبق وصدقها فيما يأتي الله قد قضى بذلك ، أما نسبة هذه السنة إلى الأولين فذلك لملابستها إياهم ، ولأنهم موضوع تحققها ، إذ جرت على أيديهم .

Prince of Songkla University Pattani Campus

5,9,2 المعنى العام :

يواصل السياق القرآن عرضه لأحوال الكافرين في حربهم للإسلام وأهله ، فبعد أن بينت الآيات السابقة أحوالهم في تلقي الطاعات البدنية ، تبين هذه الآيات أحوالهم في تلقي الطاعات المالية ، فإنهم بدلاً من أن يدخلوا في الإسلام ، ويسخروا أموالهم لنشره ، راحوا يحاربونه وينفقون هذه الأموال للصد عنه .

فبينما يبذل الكفار هذه الأموال بغير حساب ليصدوا عن سبيل الله ، إذا بهذه الأموال ذاتها تكون مجلبة لشقائهم ، لأن الله تعالى قد أورثهم منها عكس مقصودهم ، وستظل هذه سنته سبحانه في خلقه ، وإن طال الزمان ، وتباعدت العواقب .

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله : (إن هذا المال الذي ينفق يؤلب الباطل ويملي له في العدوان ، فيقابله الحق بالكفاح والجهاد ، وبالحركة للقضاء على قدرة الباطل على الحركة ، وفي هذا الاحتكاك المرير تنكشف الطباع ، ويتميز الحق عن الباطل ، كما يتميز أهل الحق من أهل الباطل ــ حتى بين الصفوف التي تقف ابتداء تحت راية الحق قبل التجربة والابتلاء ــ ويظهر الصامدون الصابرون المثابرون الذين يستحقون نصر الله ، لأنهم أهل لحمل أماناته ، والقيام عليها ، وعدم التفريط فيها تحت ضغط الفتنة والمحنة ، عند ذلك يجمع الله الخبيث على الخبيث ، فيلقى في جهنم ، وتلك غاية الخسران). (سيد قطب ، 1402هـ : 1507/3) .

وفي الآيات أيضاً يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقف مع الكفار وقفة يرجعهم فيها إلى عقولهم ليتبينوا حقيقة ما يفعلونه ، بأسلوب الدعوة الأمثل الذي يجمع بين الترغيب والترهيب ، ويأمر أيضاً أن يمنح هؤلاء فرصة التوبة ، وهي نصيحة تزجى وقول يبلغ ، كما يقول الأستاذ سيد قطب : (في ضوء ما سبق من قرار الخالق الجبار عن خيبتهم في جمعهم ، وحسرتهم على ما أنفقوا ، وصيرورتهم بعد الخزي والحسرة في الدنيا إلى أن يركم الخبيث منهم على الخبيث ، فيجعل الخبيث كله في جهنم) . سيد قطب ، 1402هـ : 1507/3) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

يقول الإمام الآلوسي : (حثّ على الإيمان وترغيب فيه ، والمعنى أن الكفار إن انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ما سلف منهم من الكفر والمعاصي ، وخرجوا منها كما تنسل الشعرة من العجين ، وإن عادوا إلى الكفر بالارتداد ، فقد رجع التسليط والقهر عليهم) . (الآلوسي ، د.ت : 206/9) .

وبقي القول أن سنة الأولين ، هي سنة الله تعالى في إهلاك المكذبين ، وذلك على اعتبار التعميم في الكفار ، أما إذا قصد بهم طائفة خاصة ، فإن إنذارهم هنا يكون بما حدث قريباً لأهل بدر ، وذلك ما رآه ابن اسحاق وبعض المفسرين . (ابن هشام ، 1995م : 228/2) .

5,9,3 فقه الآيات :

قديماً رصد الكفار كثيراً من أموالهم لحرب الإسلام والصد عنه ، وحديثاً يواصل الكفار البذل في سخاء لنفس الغاية ، ولكن مع تطور الوسائل وتنوع الطرائق ، فبينما لم يتجاوز الأمر بكفار قريش تجهيز الجيوش ونحوها ، بما كلفهم ذلك من أموال أخرجوها عن طواعية وحماس ، فإن أخلاف هؤلاء في الكفر قد تفننوا في وسائل حرب المال وتوظيفه في فتنة المسلم للصد عن دين الله .

يقول الشيخ رشيد رضا : (ومن العبرة في هذا للمؤمنين ، أنهم أولى من الكفار ببذل أموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، لأن لهم بها من حيث جملتهم سعادة الدارين ، ومن حيث إفرادهم بإحدى الحسنين _ الغنيمة أو الشهادة _ هكذا كان في كل زمان قام المسلمون فيه بحقوق الإسلام والإيمان ، وهكذا إذا عادوا إلى ما كان عليهم سلفهم الصالحون) . (رشيد رضا ، د.ت : 610/9) .

والآيات الكريمة ترسي أحكاماً شرعية نصاً أو استنباطاً للفقهاء نجملها فيما يلي :

Prince of Songkla University Pattani Campus

أولاً : أن الإسلام يجب ما قبله مما حدث في الكفر عموماً ، وهذا هو نص الآية : ﴿ إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ .

ثانياً : أن الكفار ليسوا مخاطبين بفروع الشريعة ، وذلك ما ذهب إليه أصحاب أبي حنيفة ، ونقل عنهم الإمام الرازي حيث قال : (قالوا : لأنهم لو كانوا مخاطبين بها ، لكان إما أن يكونوا مخاطبين بها مع الكفر ، أو بعد زوال الكفر ، والأول باطل بإجماع ، والثاني باطل ، لأن هذه الآية تدل على أن الكافر لا يؤخذ بشيء مما عليه في زمان الكفر ، وإيجاب قضاء تلك العبادات ينافي ظاهر هذه الآية) . (الرازي ، د.ت : 162/10) .

ثالثاً : بالنسبة للمرتد بعد إسلامه إذا تاب من ردته بإسلامه مرة أخرى ، أجرى عليه المالكية حكم الكافر إذا أسلم ، آخذاً من العموم في الآية ، وعليه لا يكون مطالباً عندهم بأي من حقوق الله أو حقوق العباد ، بأن فاتته صلوات أو أصاب جنايات ، أو تلف أموالاً فلا يطالب بشيء منها .

أما أبو حنيفة فقال : (ما كان لله عنده يسقط ، وما كان للآدمي لا يسقط ، قال ابن العربي : (وهو قول علمائنا ، لأن اله مستغن عن حقه والآدمي مفتقر إليه ، ألا يرى أن حقوق الله عز وجل لا تجب على الصبي وتلزمه حقوق الآدميين .

وذهب الشافعي في أحد قوليه : (إلى أنه يلزمه كل حق الله عز وجل والآدمي ن بدليل أن حقوق الآدميين تلزمه ، فوجب أن تلزمه حقوق الله تعالى) . (القرطبي ،1996م : 403/7) .

5,10 ما نزل الأمر بقتال الكفار :

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40)﴾

5,10,1 المعاني اللغوية :

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ فيه ترغيب المؤمنين في قتال الكفار جهاداً في سبيل الله ، والفتنة : إما الشرك ، وإما الإكراه على ترك التوحيد على خلاف . (ابن الجوزية ، 1993م : 337/2) .

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ الانتهاء : مقصود به الرجوع عن الكفر ، أما جملة (فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) فقد قال فيها الآلوسي : (إنها قائمة مقام الجزاء ، أي فيجازيهم على انتهائهم وإسلامهم ، أو جعلت مجازاً عن الجزاء ، أو كتابة ، وإلا فكونه تعالى بصيراً أمر ثابت قبل الانتهاء وبعده ليس معلقاً على شيء) . (الآلوسي ، د.ت : 207/9) .

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ التوالي هو الإعراض ، والمقصود بالعلم في قوله (فَاعْلَمُوا) ليس المعرفة المجردة بل ثمرتها وهي الثقة في عونه ونصره سبحانه ، فإنه (الْمَوْلَى) الذي لا يضيع من تولاه ، و(النَّصِيرُ) الذي لا يغلب من نصره .

5,10,2 المعنى العام :

مما تقدم نرى أن الآية تسوق أمراً للمؤمنين بقتال الكفار حتى لا يفتنوهم عن دينهم ، بإكراه من تحتهم أو من يملكون أمرهم من المستضعفين على تركه ، وهذا المعنى صححه كثير من المفسرين ، فالفتنة التي تخشى ، والتي يقاتل من أجل رفعها واقعة على المؤمنين ممن يتعرضون لها ، وهو فيما نرى المعنى الصحيح ، لأنه المفهوم من لفظ الآية من جهة ، والموافق لما أوردته السيرة من أحداث انتشار الإسلام من جهة أخرى .

لكن الآلوسي ينقل عن ابن عباس وغيره تفسيراً آخر للفتنة يقول : (حتى لا تكون فتنة) أي لا يوجد منهم شرك ، كما روي عن ابن عباس والحسن ، وقيل المراد

Prince of Songkla University Pattani Campus

: حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ويكون الدين كله لله وتضمحل الأديان الباطلة كلها ، إما بهلاك أهلها جميعاً ، أو برجوعهم عنها خشية القتل . (الآلوسي ،د.ت : 307/9) .

وكذلك ما ذكره ابن كثير ، رواية عن حماد بن سلمة أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أتاه رجل فقال : إن الله يقول : G﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ قال : قد قاتلنا حتى لا تكن فتنة ، وأنتم تريدون أن تقالوا حتى تكون فتنة وحتى يكون الدين لغير الله . (ابن كثير ،1996م : 309/2) .

5,10,3 فقه الآيات :

تقرر الآيات هنا بشأن الجهاد في الإسلام ، وأن هذا الجهاد لا ينتهي أبداً دون غرضين :

الأول : الدفاع عمن أسلم ضد كل الضغوط المتوقعة ، وذلك قوله تعالى : ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ .

الثاني : فتح الطريق وإزالة العوائق أمام من لم يسلم ، وذلك هو قوله تعالى : ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ .

وهذان الغرضان يمثلان في جوهرهما غاية الجهاد ، وقبل الحديث عن هذه الغاية نود التنبيه إلى أنه إذا كانت نصوص سورة الأنفال المتعلقة بالجهاد لا تمثل الأحكام النهائية في قوانين الحرب والسلام _كما قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله _ بل هي مرحلة من مراحلها تشترك في إبراز صورتها التي وردت في سورة براءة ، فإن هذه الآية بذاتها تمثل حكماً نهائياً ودائماً للحركة الإسلامية في مواجهة الواقع الجاهلي ، وهو ما يعنينا هنا من غاية الجهاد التي توضح بجلاء المفهوم الإسلامي للحرب . (سيد قطب ،1402هـ : 1508/3) .

إذا اتضح ذلك ، فإن غاية الجهاد متمثلة في الغرضين السابقين ، هي حقيقة ثابتة وباقية قررتها آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ .

Prince of Songkla University Pattani Campus

ففي الغرض الأول : وهو دفع الفتنة عمن أسلم ونصرة المستـــضعفين ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ (سورة النساء ، الآية 75)

وفي الغرض الثاني : وهو إزالة العوائق أمام جماهير النـــاس للـــدخول في الإسلام ، وذلك ما رواه أبو هريرة عن سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْهم قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّـــا اللَّهُ ، فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّه رَوَاهُ عُمَرُ وَابْنُ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ * . (البخاري ،1978هـــ : حديث رقم 2727) .

وذلك محمول على إزاحة القوى الحاكمة المتسلطة التي تحول بين جمـــاهير الناس وبين الإسلام ، وهو لا يتأتى إلا بجهادهم بالسيف ، وقتالهم بكل الوسائل ، وعليه فلا يشكل علينا قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ . (سورة البقرة ، الآية 256) . لأننا قد بينا أيضاً أنه عند إزاحة العوائق يكون الجهاد بالإقناع والموعظة الحسنة ، فـــإذا اتضح الحق في مواجهة جماهير الناس ، عند ذلك : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُـــؤْمِنْ وَمَـــنْ شَـــاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ . سورة الكهف ، الآية 29) .

5,11 ما نزل في تقسيم الفيء :

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّه خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَـــى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّه وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(41)إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُـــدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ42 ﴾

Prince of Songkla University Pattani Campus

5,11,1 المعاني اللغوية :

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ غنم مصدره الغنم ، وهو ربح الشيء والفوز به ، وغنم الشيء واغتنمه : عدّه غنيمة . (ابن منظور ، 1992م : 3307/5) . وقوله ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أريد به الاعتناء بشأن الغنيمة ، وأنه لا يشذ عنه شيء ، أي ما غنمتموه كائناً مما يقع عليه اسم الشيء حتى الحبط والخبط ، والعلم المأمور به هنا ليس المعرفة لذاتها ، وإنما أريد به ما يستتبع من امتثال الأمر ، وتخميس الغنيمة على النحو الوارد في الآية ، وقوله ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره : فحق أو واجب جعل خمسه لله ، وقوله ﴿ وَلِلرَّسُولِ ﴾ عطف على لفظ الجلالة بتقدير مبتدأ : وهو أي الخمس للرسول .

﴿ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ إعادة اللام في (ذي القربى) دون بقية الأصناف لبيان استقلالهم بسهم من الخمس ، ودفع توهم اشتراكهم في سهم النبي ﷺ . (سيد طنطاوي ، 1988م : 129/6) .

﴿ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ جزاء الشرط في قوله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ﴾ محذوف دلّ عليه قوله ﴿ وَاعْلَمُوا ﴾ أي إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس لله علماً يجعلكم تقطعون أطماعكم عنه . وقوله﴿ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ عطف على لفظ الجلالة داخل فيها شرط الإيمان به ، أي إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا على عبدنا ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ وهو يوم بدر ، فرّق الله به بين الحق والباطل ، ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾والمقصود به الوحي الوارد بشأن الغزوة وأحداثها ،وكذلك الملائكة الذين أمدّ الله المؤمنين بهم ، وأيضاً النصر العظيم .(ابي السعود ، د.ت : 488/2-489) .

﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ العدوة بضم العين ، وجاءت بالفتح أيضاً وبالكسر هي : شاطئ الوادي ، وهو أحد جانبيه . قال ابن السكيت : عُدوة الوادي وعِدوته : جانبه وحافته ، والجمع : عِدى

وعُدى . (ابن منظور ، 1992م : 2851/4) . والعدوة الدنيا : هي جانب وادي بدر _ الذي حدث فيه الموقعة _ منجهة المدينة ، والعدوة القصوى : هي الجانب الآخر من جهة مكة .

﴿ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ حال من الظرف الأول (إذا أنتم) والتقدير : إذ أنتم في مواجهة عدوكم ، وكل فريق يحتل ناحية من الوادي ،والحال أن الركب _ وهو عير أبي سفيان _ في مكان أسفل منكم بحيث لا ترونه .

﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ ضمير الجمع في التواعد للطرفين المسلمين والكفار باتفاق ، أما ضمير في الاختلاف فإما أن يكون للطرفين أيضاً مثل الأول ، أو يكون للمسلمين وحدهم باعتبار التراجع سيكون من جهتهم .

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ البينة هي الحجة الواضحة الساطعة ، والمقصود بها : ما حدث من الآيات يوم بدر من نصر القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة ، وما مرّ به هذا النصر حتى تحقق من خوارق .

5.11,2 المعنى العام :

يعود السياق القرآني في هذه الآية وما بعدها إلى استحضار الجو والظروف التي تمت فيها معركة بدر ، استحضاراً دقيقاً تبرز فيه معالم الميدان ، وجغرافية المكان ، ولا يقتصر على ذلك ، بل يمتد إلى الأشخاص ليتناول نوايا الطرفين ، كل ذلك في إطار تدبير إلهي للفريقين بما يناسب حال كل فريق .

لكن الله تعالى جمع بين الطرفين على تلك الحال التي لم يسبقها اتفاق ، وكان ذلك لأمور :

منها : إشعار المؤمنين بأن الله تعالى معهم وناصرهم ، وأنهم على الحق ،وأن الله تعالى سوف يظهر هذا الدين ، كما وعدهم النبي ﷺ .

Prince of Songkla University Pattani Campus

ومنها أيضاً : إقامة الحجة ليعاينها الفريقين ، ويختار كل فريق لنفسه أن يحيا بالإيمان ويموت عليه ، أو يموت بالكفر حياته ، لأن الكفر موت معنوي ، ثم يهلك به وبسببه في عذاب جهنم . (السيد جبريل ، 1983م : ص235) .

5,11,3 فقه الآيات :

من خلال الآية تشع أضواء تبرز للمؤمن ما ينبغي أن يوجه إليه اهتمامه ، فلقد خرج المسلمون لحيازة العير وبما تحمل من أموال ، ولكن الله تعالى وجههم إلى ما يحوزون من ورائه منفعة دائمة تتجاوز هذه المنفعة المادية القصيرة ، التي كانت ستتحقق من ورائه غنيمة القافلة ، وهي ظهور الإسلام واستعلائه في عالم الواقع بعد استعلائه في عالم الضمائر المؤمنة ، تصديقاً وتأكيداً .

وإن هذه الأضواء تبرز كرامة المؤمنين ، وعلو مكانتهم ، وما ينبغي لهم من الاعتزاز بدينهم من خلال جعل مركز القياس إلى المدينة ، وقد خرج منها جيش الإيمان ، لا إلى مكة التي خرج منها جيش الكفر ، رغم أنها أم القرى وبها أقدس مكان في الأرض وهو بيت الله الحرام .

وكذلك في إبراز أن هدف المؤمن الأعلى هو إعلاء كلمة الله تعالى بالجهاد في سبيله ، وأسفل من ذلك كل منفعة دنيوية زائلة . (المصري ، د.ت : ص71) .

ذلك هو بعض ما ينبغي لمؤمن أن يفقهه من حقائق دينه وهي كثيرة وثابتة ومشرقة .

Prince of Songkla University Pattani Campus

5,12 ما نزل في لطف الله بالرسول ﷺ:

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(43)وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ(44)﴾

5,12,1 المعاني اللغوية :

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ المنام المذكور في الآية : هو النوم ، والرؤيا كانت فيه على ما عليه الجمهور .

﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ كان المألوف أن يفرد ضمير المخاطب في الجزاء كما أفرد في الشرط ، ليكون تقديره : (لفشلت) ولكن عدل عن ذلك لأن الخطاب في الثاني : موجه لأصحابه ﷺ ، إذ الجبن عن المواجهة يعرض لهم وليس له ، وحتى إذا كان الخطاب له عليه السلام معهم ، فإنه يكون من قبيل إسناد حكم الأكثر إلى الكل .

والأمر الذي خشي التنازع فيه هو أمر القتال والمواجهة ، ولكن الله تعالى سلم ، فحفظهم من هذا التنازع .

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ تعميم الخطاب هنا لعموم الرؤية البصرية من الجميع ، ذكر ابي السعود في تفسيره عن معنى (القضاء) في الآية فقال : قد سبق مثل هذا القضاء في قوله تعالى (إذ أنتم بالعدوة الدنيا ... الآية) وكرر هنا إما لاختلاف سبب التعليل بهذا ، أو أن السبب في ذلك اختلاف المراد بالأمر المقضى في الموضعين ، فهناك أريد به : التقاء الفريقين على الوجه الذي سبق ، وهنا أريد به : إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الكفار وحزبه . (أبي السعود ، د.ت : 493/2) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فإنه سبحانه هو وحده المختص بالقضاء والتصرف في كل شيء ابتداء ، وإليه وحده أيضاً ترجع الأمر كلها بعواقبها انتهاء .

5,12,2 المعنى العام :

يوالي سياق الآيات هنا ذكر أوجه النعم والرحمات التي غمر الله تعالى بها فريق الإيمان يوم بدر ، فيكشف عن تدبيره سبحانه في هذا اللقاء .

فلقد كان من جملة هذا التدبير أن يُري الله تعالى رسوله ـ في رؤياه أثناء نومه ـ جمع الكفار الوافد للقتال شيئاً قليلاً ، لا وزن له ولا قوة ، ليخبر أصحابه بذلك فتقوى قلوبهم على القتال ، وذلك ضرب من التثبيت الإلهي آتى ثماره بالفعل تشجيعاً للقلة المؤمنة على ملاقاة أعدائهم من غير خوف ولا رهبة .

والذي عليه جمهور المسلمين أن هذه الرؤيا كانت أثناء نومه ﷺ ، فلما استيقظ أخبر بها أصحابه فاستبشروا ، وهذا الذي نرتضيه وهو الظاهر المتبادر ، وقد حكاه عن مجاهد أكثر المفسرين . (السيد جبريل ، 1983م : ص240) .

5,12,3 فقه الآية :

إن الله تعالى قد علم ما تعتمل به قلوب المؤمنين من الرهبة قبل لقاء بدر ، وكان ذلك لما يرونه من قلة عددهم وعدتهم وعدم استعدادهم ، فأرى رسوله في المنام جمع الكفار قليلاً هيناً رغم كثرتهم الحقيقة ، إذ أن هذه الكثرة لن يكون لها وزن ولا قيمة فعّالة في القتال ، ولقد أخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فثبتوا وتشجعوا ، ولو كان الله تعالى أراه هذا الجمع في كثرة مجدية ، يدل ظاهرها على أثرها الذي ينتظر منها ، لفت ذلك في عضد المسلمين ، ولأحدث هذا أثره اختلافاً بينهم على اللقاء من عدمه ، وهذا

Prince of Songkla University Pattani Campus

الاختلاف كان سيؤول بهم حتماً إلى الفصل عندما تتغلب آراء من يرون الرجوع عن قتالهم ، ولكن الله تعالى سلمهم من الانحدار و لم ينهزموا .

إن صورة القلة في جمع الكفار التي رآها النبي ﷺ في نومه قد تأكدت برؤية المسلمين لهم كذلك بأعينهم عند اللقاء تصديقاً لرؤيا النبيﷺ ، وهذا التوافق الصادق قد ترك أثره في تقدير الصحابة للموقف تقديراً كان من شأنه الاندفاع للقائهم بغير خوف ولا وجل .

يقول ابن كثير : قال أبو إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة ابن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لقد قللوا في أعيننا يوم بدر ، حتى قلت لرجل جنبي : تراهم سبعين ؟ قال : لا ، بل مائة ، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه ، فقال : كنّا ألفاً . (ابن كثير ،1996م : 315/2) .

5,13 ما نزل في وعظ المسلمين وتعليمهم خطط الحرب :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(49) وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (50) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (51)﴾

5,13,1 المعاني اللغوية :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ الشأن في الخطــاب بــصفة الإيمان وتصويره هنا بحرف النداء للدلالة على الاهتمام بما يتضمنه هذا الخطاب ، والفئة هي الجماعة من الكفار ، فاللقاء هنا لقاء الحرب في ميدان القتال ، بقرينة الأمر بالثبات ، فإنه يكون في هذا الموطن .

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ نهى عن التنــازع المــؤدي إلى الفشل ، والريح هي القــوة والنــصر ، أو هــي تعــبير عــن الدولــة والــسلطان.(الشوكاني،1997م : 315/2) .

﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ المعية في الآية هــي معيــة الإمــداد والإغاثة .

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ النهي عن التشبه بالكفار ، والمراد بالموصول أهل مكة الذين خرجوا لحماية العير ، والبطر لفظه يدور معناها حول عدم الإحسان في تلقي النعمة أو القيام بحقهــا . قال ابن منظور : البطر الطغيان في النعمة ، وقيل : هو كراهية الشيء من غير أن يستحق الكراهية . (ابن منظور ،1992م : 300/1) .

أما الرئاء : فهو خداع الشخص غيره بإظهار أمامه خلاف ما يــبطن ، ليفتر بهذا الظاهر منه ويعامله على أساسه . (الفيروز آبادي ، 1987م : ص1659).

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ الظرف منصوب بمضمر ، إما خوطب به النبي ﷺ على طريق التلوين كمــا قال المفسرون أي : واذكر وقت تزين الشيطان ، أو خوطب به المؤمنون ، أي : واذكروا إذ زين الشيطان أعمالهم في معداتكم .

﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ قال أبو بكر الرازي : النكوص : الإحجام عن الشيء ، يقال:

Prince of Songkla University Pattani Campus

نكص على عقبيه أي رجع ، وبابه : نصر .(أبو بكر الرازي ، 1994م: 173/15). وتراءى الفئتين هنا كناية عن تلاقيهما ، فإن النكوص كان عنده ، أي أنه لما تلاقى الفريقان للقتال ، ورأى الشيطان ما رأى من مدد المؤمنين تخلى عن الكفار ورجع .

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي من يتوكل على الله يتولى أمره ، وينصره ، ويكفه أمر أعدائه لأنه (عزيز) غالب لا يزل من توكل عليه واستجار به وإن قلّ (حكيم) يفعل بحكمته البالغة ما تستبعده العقول .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ الخطاب فيه موجه إلى النبي ﷺ ، كما يمكن توجيهه إلى كل من تتأتى منه الرؤيا ، والوجوه والأدبار : إما مقصود بهما هذه المواضع بذاتهما تشنيعاً لحالهم عند التوفي ، أو مقصود بهما ما أقبل وما أدبر من الأعضاء تعبيراً عن الإيلام لكل أجسامهم .

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ الإشارة إلى ما مر من الضرب والعذاب ، وجاءت بما يدل على البعد لإفادة بلوغ ما ذكر الغاية من الهول .(الآلوسي ، د.ت : 18-16/10) .

5,13,2 المعنى العام :

تقدم الآيات صورة واضحة المعالم للمنهج الإسلامي في تربية المؤمن في واحد من أهم المواطن ، وهو موطن القتال .

فالحرب في الإسلام ليست قاعدة بل استثناء ، والمسلم لا يعيش حياته حاملاً لسيفه يشهره في وجه كل من يلقاه ، ولكنه يلجأ إليه فحسب ، إذا صادفه ما يعوقه عن تحقيق هدفه الأسمى الذي يحتل المقام الأول في حياته وهو نشر دين الله ، فإذا حمله فإنما يحمله دفاعاً عن الحق المتمثل في هذا الدين ، لكي يصل هذا الحق إلى كل مستحقيه ، انطلاقاً من عمومية الرسالة الإسلامية .

Prince of Songkla University Pattani Campus

إن المسلم يتمنى أن يمكن من دعوته بالحسنى دون إراقة نقطة واحدة من الدم ، لكن إذا لم يمكن ذلك ، فعليه بالثبات والصبر والطاعة والتحمل إذا جدّ الجد ، وهذا ما يعبره النبي ﷺ فيما رواه عنه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قال:" أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ، وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ ". البخاري ، 1378هـ : حديث رقم 2744) .

وتستأنف الآيات حديثها بنهي المؤمنين عن التشبه بالكفار في مرذول صفاتهم ، وذلك من خلال الاستمرار في استعراض المواقف في يوم بدر ، فتتحدث هنا عن موقف الكفار من خلال آفات ثلاث هي : البطر ، والرياء ، والصد عن سبيل الله .

لقد كانت روح التحدي التي خرجوا بها مكمن هذه الآفات التي وصفوا بها في الآية ، فإن استكبار أبي جهل في قولته وإصراره على قدوم بدر هو ضرب من البطر والخيلاء والغرور ، ولذلك ورد أن رسول الله ﷺ عندما رآهم يهبطون من الكثيب إلى الوادي قال : " اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك ، اللهم نصرك الذي وعدتني ، اللهم أحنهم الغداة " . (ابن هشام ،1995م : 192/2) .

فلقد شجعهم الشيطان في ذلك على الخروج وحسّن لهم هذا الفعل ، وفي كيفية هذا التزيين وردت روايتان عن ابن عباس :

إحداهما ما رواه عنه ابن جرير :(قال ابن عباس في هذه الآية : لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم ، وإني جار لكم ، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة ، نكص على عقبيه ، قال : رجع مدبراً ، وقال : إني أرى ما لا ترون) . (ابن كثير ،1996م : 317/2) .

أما الثانية : فهي ما رواه عنه ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل وغيرهم ، قال : (جاء إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من بني

Prince of Songkla University Pattani Campus

مدلج ، والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعثم ، فقال الشيطان : "لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم" وأقبل جبريل على إبليس ، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده ، وولى مدبراً وشيعته ، فقال الرجل : يا سراقة إنك جار لنا ، فقال : إني أرى ما لا ترون ، وذلك حين رأى الملائكة . (الشوكاني،1997م : 316/2) .

وتستعرض سياق الآيات أيضاً صورة من صور الغيب ، فيجليها أمام النبي ﷺ ومعه كل من يتأتى خطابه في هيئة مرئية حتى يعانيها كل من يسمع .

فهؤلاء هم الكفار الذين ملأوا الأرض في حياتهم ظلماً وبغياً ، وإنكاراً وجحوداً ، وغروراً واستعلاء ، ينتهي أمرهم إلى مصيرهم المحتوم الذي طالما كذبوا به ، وهو الان يحضرهم ، ولكن في صورة من الهول بلغت كل مبلغ .

إنها لحظة الوفاة ومفارقة الدنيا ، وقد حضرتهم الملائكة ينقلونهم من دنيا الغرور والاستعلاء إلى دار الجزاء نقلاً تحوطه المهانة ويجلله الخزي ، فهم عند ذلك يأخذونهم من ا لعنف بإقصاء ، ومن الاستهزاء بغايته ، إنهم يضربون وجوههم وأدبارهم في صورة تسجد الإذلال والتحقير بلا حدود ، ثم يثقلون كاهلهم بأعباء الهم والحزن بإخبارهم بما وراء ذلك من عذاب الحريق في النار .

5,13,3 فقه الآيات :

والآية بعد ذلك تحذر من أخطر ما يصيب الدولة الإسلامية بالتصدع والانهيار ، إنها تحذير من اختلاف الكلمة ، وتفريق الجمع ، وتفكك الرأي ، وهو ما تلمس من آثاره في مجتمع المسلمين ودولتهم .

فلقد تفرقوا واجتمع عدوهم ، وتنازعوا واختلفوا واتحد خصمهم ، ومن عجيب أن عوامل الاتحاد الطبيعية لم تتوفر لأمة مثلما تتوفر لأمة الإسلام ، وهي مع ذلك تهدر هذه العوامل ، التي تغلب على نقصها أعداؤهم باتحادهم على كراهية الإسلام وأهله ، فوحّد ذلك بينهم ، فانعكست الصورة وانقلبت الأوضاع .

Prince of Songkla University Pattani Campus

يصور ذلك السيد جمال الدين الأفغاني بعد أن استعرض حالة الشرق والغرب ، ثم يقول : (فعصرت جهاز دماغي لتشخيص دائه وتحري دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه[137] داء انقسام أهله وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فعملت على توحيد كلمتهم ، وتنبيههم للخطر الغربي المحدق بهم) . (محمد الغزالي ، د.ت : ص 255) .

والآيات نهى المؤمنين عن الاتصاف بصفات الكفار من الغرور والرياء الذي أهلكهم ، عندما اتبعوا ما أغراهم به الشيطان من المضي للقاء وأنهم لن يغلبوا ، حتى إذا جد الجد خذلهم ، وزعم أنه فعل ذلك خوفاً من الله تعالى ، وقد كذب لأنه ما فعل ذلك إلا عندما أيس من حالهم ، لما رأى إمداد الله تعالى لهم بالملائكة .

ثم تأتي الآيات لتقرر أن نصر المؤمنين ، وهزيمة ا لكافرين قد تم برغم تكاتف المنافقين ومرضى القلوب على المسلمين . (ابن القيم الجوزية ، 1993م : 339/2) .

5,14 ما نزل في العظة من الغابرين :

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53) كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (54)﴾.

[137] يقصد مجتمع الإسلام

Prince of Songkla University Pattani Campus

5,14,1 المعاني اللغوية :

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ الدأب أصله الاستمرار على الشيء وتعود عليه ، قال ابن منظور : الدأب العادة والملازمة ، يقال : مازال ذلك دينك ودأبك ، وديدنك وديديونك ، كلمة من العادة . (ابن منظور ،1992م : 1310/2) .

والجملة مستأنفة سيقت لبيان أن ما حلّ بهؤلاء الكفار من العذاب بسبب كفرهم ، وهم يشبهون في ذلك من سبقهم من الأمم المهلكة ، فتلك هي سنة الله المطردة في الأمم .

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي أن أخذ الكفار بسبب كفرهم منطلق من حقيقة أنه سبحانه وتعالى قوي لا يغلبه غالب فيدفع عقابه عمن أراد معاقبته .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ ذلك إشارة إلى ما يستفاد من السياق ، وهو أن عذاب الله إياهم وقع لهم بسبب كفرهم . وتخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأن الله تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه . (ابن كثير ، 1996م : 374/3) .

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أنه تعالى سميع عليم يسمع ويعلم ما يقولون وما يفعلون ويترتب عليه ما يستحقون من الجزاء .

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ إعادة الحديث عن آل فرعون والذين من قبلهم بنفس التعبير ، إما أن يكون من قبيل التعميم لما في الآية السابقة ، أو أن يكون مسوقاً لتقرير ما سيق له التعبير الأول ، لكن عن طريق الإشارة إلى شأن آل فرعون ومن قبلهم فيما فعلوا وقيل بهم ، وجملة (كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ) تفسير لدأبهم الذي فعلوه من تغيير لحالهم من النعمة التي كانوا فيها إلى تكذيب رسلهم .

Prince of Songkla University Pattani Campus

﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ تعميم للحكم بالظلم علىكل من ذكر في الآيات من آل فرعون ، والذين من قبلهم ، وكفار قريش ، وذلك أنهم وضعوا الكفر والتكذيب مكان الإيمان والتصديق وذلك أصابهم ما أصابهم . (ابي السعود ، د.ت : 496/2-499) .

5,14,2 المعنى العام :

يخبر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين في هذه الآيات بأنه إن كان جعل الدائرة على كفار قريش ، بهزيمتهم في بدر ، وقتل وأسر صناديدهم ، فإن سنته قد جرت بذلك بل أشد منه في كل المكذبين من الأمم السابقة .

فهؤلاء الملأ من قوم فرعون الذين كذبوا موسى ، وطغوا بكفرهم واستعلوا في الأرض ، جاءهم عقاب الله وهم متلبسون بهذا الكفر ، يطاردون نبي الله مع من آمن به ليقتلوهم ، فنجي الله نبيه والمؤمنين ، وأهلك عتاة الكفر فإذا هم أثر بعد عين.

ويستطرد السياق بعد ذلك ليقرر أن تلك السنة من سنن الله في كونه مقترنة بسنة أخرى تنطلق من عدل الله تعالى ومن رحمته معاً ، فهو سبحانه يبتدئ الخلق ويبادرهم بفضل كرمه ، وهو يقيمهم على ذلك ما داموا له أهلاً ، فإذا غيروا من حالهم تغييراً من شأنه تخليف الفساد ، فإن عدلاً أن يقابل هذا التغيير منهم بتغيير ما هم فيه من نعمة . (الفخر الرازي ، د.ت : 181/15) .

هكذا أهلك الله المكذبين من الأمم السابقة ، وهكذا جرت سنته في كفار قريش فيما حدث لهم ببدر وما بعد بدر ، ولولا أن تضمن الله تعالى لنبيه أن لا يهلك أمته بعذاب الاستئصال .

Prince of Songkla University Pattani Campus

5,14,3 فقه الآيات :

أقام الله نظام الاجتماع البشري على سنن ثابتة لا تتغير ، والآيات يبرز لنا واحد من هذه السنن من جهة ، وتسوق درس التاريخ وعبرته فيها من جهة أخرى .

أما السنة فتتلخص في حتمية التلازم بين المنهج الاجتماعي أو السلوك الإنساني في كل أمة وبين ما يترتب عليه من بقائها أو فنائها ، وأما الدرس فهو حصيلة تطبيق هذه السنة في أحقاب التاريخ ، مما يرسم صورة واضحة لدلائل انهيار الحضارات وسقوط الأمم .

يقول الشيخ رشيد رضا : (إن للعائد الدينية والخرافية آثاراً في وحدة الأمة وتكافلها ، وقوة سلطاها أو ضعفه ، ولا يظهر الفرق بينهما في الوجود إلا بوقوع التنازع بين أمتين مختلفتين فيها ، وإن للأخلاق الشخصية التي يتحقق بكثرة بعضها ما يسمى خلقاً للأمة أو الشعب مثل ذلك في حكمها وسلطانها ، وفي ثروتها وعزتها أيضاً ، ويظهر ذلك في سيرة كل أمة ودولة ذات تاريخ معروف) . (رشيد رضا ، د.ت : 43/10) .

5,15 ما نزل في عاقبة الغدر :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(55)الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ(56)فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(57)وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ(58)وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ(59)وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ(60)﴾ .

Prince of Songkla University Pattani Campus

5,15,1 المعاني اللغوية :

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قياس الشرية في هذه الطائفة من الكفار إلى الدواب فيه إيماء إلى أنهم نزلوا في حكم الله وقضائه مترلة الدواب ، ليس ذلك فحسب بل شر أنواع الدواب . وقوله (فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) حكم مترتب على تماديهم في الكفر وأصالتهم فيه ، على تقدير : إن شر الدواب عند الله الذين كفروا مصرين على عدم الإيمان . (الجزائري ، 2003م : 447/1) .

﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ صيغة الاستقبال في الفعل للدلالة على تجدده واستمراره منهم ، والمقصود بكل مرة من مرات المعاهدة .وقوله (وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ) أي يقيمون على نقض العهد على كونهم غير متقين سوءة الغدر وعاقبته.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ الثقف من معانيه : الأخذ والمصادفة والظفر ، قال ابن دريد : (وثقف الرجل : ظفر به ، وثقفته ثقفاً مثال : بلعته بلعاً أي صادفته ، وثقفنا فلان موضع كذا أي أخذناه ، ومصدره الثقف) . (ابن منظور ،1992م : 492/1) . فجماع معنى اللفظ يدور حول التمكن منهم عند لقائهم ، وقوله (فَشَرِّدْ بِهِمْ) التشريد التفريق والتبديد ، أي ففرق بهم من خلفهم ، وذلك بالتنكيل بهم تنكيلاً يرهب من ورائهم فيتفرقون وينصرفون عن الاقتداء بسابقيهم في خيانتك والغدر بك .

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ قال ابن منظور : النبذ : طرحك الشيء من يدك أمامك أو وراءك ، نبذت الشيء أنبذه نبذاً إذا ألقيته من يدك . (ابن منظور ،1992م : 492/1) . وأما المراد بالخوف في قوله (وَإِمَّا تَخَافَنَّ) وبما يترتب عليه من طرح العهد علانية أو غيره .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ تعليل للأمر بطرح العهد إلى من يتوقع منه النقض ، على اعتبار أن ذلك الأمر يستلزم النهي عن مناجزتهم بالحرب قبل هذا الطرح ،

Prince of Songkla University Pattani Campus

فهو على ذلك تحذير النبي ﷺ من هذا الفعل لأنه خيانة ، والله لا يحب الخائنين .(الآلوسي ، د.ت : 10/22-23) .

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ بالياء وهي قراءة حفص وابن عامر وأبي جعفر وحمزة ، وقرأ غيرهم بتاء الخطاب (وَلَا تَحْسَبَنَّ) على أن الخطاب فيها للنبي ﷺ ، وقد أجاز البعض أن يكون أيضاً لكل من له حظ في الخطاب . (الآلوسي ، د.ت : 10/23-24) . وقوله (إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ) أي لا يفوتون الله تعالى ، أو لا يجدون طالبهم عاجزاً ، والجملة تعليل عن الحسبان السابق ممن يحسب ذلك .

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ الإعداد هو تهيئة الشيء للمستقبل ، وتوجيه الخطاب إلى المؤمنين عموماً لأن المأمور به من شأن الجميع ، والمقصود بـ (لهم) إما الكفار الذين نبذ عهدهم إليهم ، أو الكفار على الإطلاق وهو الأنسب بالسياق ، والقوة هي كل ما يتقوى به .

﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ أي تخوفون ، أو تخزون كما أورد جمع عن ابن عباس . (الشوكاني ،1997م : 2/321) .

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ المراد بسبيل الله الجهاد أو كل وجوه الخير والطاعة ويدخل فيه الجهاد دخولاً أولياً . وقوله (وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) بترك الإثابة على إنفاقكم . وكما يقول ابو السعود : (والتعبير عن تركها بالظلم مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلماً ، لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصوير بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح ، وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى) . (أبي السعود ، د.ت : 2/503-504) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

5,15,2 المعنى العام :

يستأنف السياق هنا الحديث عمّن بقي من الكفار بعد أن قصّ أخبار من هلك منهم في بدر ، فيذكر أولاً أحوالهم وماذا يشبهون في هذه الأحـــوال ، ثم يعقـــب بذكر أحكام التعامل معهم وفق ما هم عليه من أحوال تأصلت فيهم حتى أصبحت مـــن مكونات شخصياتهم .

فهم بكفرهم الذي ضرب بجذوره في أعماقهم حتى أنهم لا يؤمنون أبداً ، وقد أهدروا كل ما جعل مناطاً لتكريم الإنسان من نعم الحواس المدركة الـــتي يتوجهـــا العقل المفكر ، ومن ثم انحطت مترلتهم حتى أصبحت دون البهائم التي يميز الكثير منـــها بغريزته بين ما ينفعه وما يضره .

وإذا استعرضنا مع السياق القرآني بقية أحوالهم ، طالعتنا بشاعة الخسة في طباعهم ، فلقد اقترن عندهم هذا الإصرار على الضلال برغم علمهم بالحق ، بسلوك لا يوجد إلا عند أراذل البشر ، ألا وهو سلوك الغدر والخيانة ونقض العهود مع المداومـــة على ذلك . (الزحيلي ، 1991م : 10/43-44) .

إن جزاء الخائن أن تطهر الأرض من رجسه ، للقضاء من شره من جهـــة ، وليكون عبرة لمن يفكر أن يحذو حذوه من جهة أخرى ، فالرسول ﷺ ومن يخلفه على أمر المسلمين ، مأمور إذا تمكن على هذا النمط البشري في الحرب أن يقتلهم تقتيلاً تجري صورته روايات على ألسنة القصاص ترهب من بقي وراء هؤلاء ممن هم على شـــاكلتهم فلا يجرؤن على استئناف خيانتهم .

والآيات يخبر الله تعالى نبيه بأسلوب يعمم العلم عند كل مخاطب ويقـــرر في نفس كل من يسمع ، أن أمر الكفر يجري في جسمه وفق سنة الله تعالى في الكون كله من إزهاق الباطل ودحره .

فمهما ارتفع صوته ، وعلا ضجيجه ، لابد أن يواجه عاقبته فيما يستقبل من مراحل الزمن ، ومن خلال احتكاك اتباعه بأتباع الإيمان في تلك المراحل ، يمحص الله

Prince of Songkla University Pattani Campus

إيمان المؤمنين ، ويمحق كفر الكافرين ، فطبيعة الحياة ابتلاءات متوالية ، بل صلاحها في هذه الاحتكاكات والابتلاءات .

إن ما حدث في بدر تحققت هذه السنة في رؤوس الكفر فاندحروا وهلكوا ، وهو ما تقرره الآيات فيمن بقي من الكفار بعدها ، ولكن لفظ التعميم في الآية يجعل الأمر غير قاصر على تلك الوقعة ، ولا على هؤلاء الكفار بعينهم ، وإنما هي لقطة تمثل جوهر السنة الإلهية في حسم أمر الكفر في كل موقعة ، وفي كل كافر ، وإن طال الزمان وتباعدت الأيام .

وتسوق الآيات أيضاً من الأسباب المادية الظاهرية ما يطبق الله سبحانه من خلالها سنته ، فيأمر جل شأنه المسلمين أن يعدوا لإرهاب الكفر متمثلاً في العتاة من أتباعه أقصى ما يستطيعون من قوة . (المراغي ، 1974م : 24/10) .

فالمسلمون مطالبون في إعداد القوة بمسميات عصورهم المختلفة ، درءاً للفساد ودفعاً للشر وإخافة العدو ، قال صاحب المنار : (وما يدرينا لعل الله تعالى أجراه على لسان رسوله ﷺ مطلقاً ليدل على العموم لأمته في كل عصر بحسب ما يرمى به فيه). (رشيد رضا ، د.ت : 70/10) .

ولقد خصت الآية نوعاً من القوة بالذكر ، وهو رباط الخيل لتكون معدة للقتال عليها في سبيل الله ، وهذا التخصيص اعتبارها المركب والأداة التي يحمل عليها في عصر النزول وما تلاه من عصور إلى عهد قريب ، والآية بذلك تكون قد قرنت بين أدوات القتال كلها متمثلة في شخص المجاهد ، وقد أشير إليه في الأمر بإعداد القوة ، والسلاح بكل أنواعه وقد أشير إليه بالقوة ، والظهر الذي يركب ويحمل عليه وقد أشير إليه برباط الخيل . (ابن كثير ، 1996م : 376/2) .

وللفخر الرازي في شرح هذا التعليل عبارة جيدة يقول فيها : (ثم أنه ذكر ما لأجله أمر إعداد هذه الأشياء فقال : (تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) وذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ، ومستعدين له مستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم ، وذلك الخوف يفيد أموراً كثيرة :

Prince of Songkla University Pattani Campus

أولها : أنهم لا يقصدون دخول دار الإسلام ، وثانيها : أنه إذا اشتد خوفهم فربما التزموا من عند أنفسهم جزية ، وثالثها : أنه ربما صار ذلك داعياً لهم إلى الإيمان ، ورابعها : أنهم لا يعينون سائر الكفار ، وخامسها : أن يصير ذلك سبباً لمزيد الزينة في دار الإسلام) . الفخر الرازي ، د.ت : 186/15) .

5,15,3 فقه الآيات :

ومن الآيات يبرز جانب آخر من جوانب المفهوم الإسلامي للحرب والسلام ، فالإسلام متمثل في أهله ، إذا عاهد يصون عهده ، ويطلب من غيره ذلك ويكون قدوة له فيه ، لكنه لا يطرح الحذر والترقب جانباً .

فاحترام العهود في الإسلام أمر لا يقبل مناقشة ولا جدل ، لكن المسلم إذا خاف خيانة من غيره ، وتوفرت الدلائل على رجحان احتمالها ، احتاط للأمر ، وطرح العهد القائم ، وذلك هو ما يناسب في المعاملة مع أخلاقهم الغدر في عهدهم ، ونحسب أحداً يختلف على استحقاقهم ذلك . (سيد طنطاوي ، 1988م : 179/6-180) .

إن الإسلام يرفع البشرية بهذا السلوك الرفيع إلى آفاق عالية من الشرف والاستقامة ، فهو يحارب لغاية هي الجهاد في سبيل الله ، وهو إذا عاهد يحترم عهده ، فلا ينقض حتى يكون عدوه هو الذي ينقض ، والمؤمنون عند شروطهم ، وهو إذا واجه طائفة الخائنين في الحرب إنما يعاملهم بما يستحقونه من العنف لتطهير الأرض من شرهم ، وهو أخيراً إذا توقع خيانة عالجها بوضوح وشجاعة لا يختفي وراءها جبن أو تآمر .

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله : (ويجب أن نذكر أن هذه الأحكام كانت تتنزل والبشرية بجملتها لا تتطلع إلى مثل هذا الأفق المشرق ، لقد كان قانون الغابة هو قانون المتحاربين حتى ذلك الزمان ، قانون القوة التي لا تتقيد بقيد متى قدرت ، ويجب أن نذكر كذلك أن قانون الغابة هو الذي ظل يحكم المجتمعات الجاهلية كلها إلى القرن الثامن عشر الميلادي ، حيث لم تكن أوروبا تعرف شيئاً عن المعاملات الدولية ،

Prince of Songkla University Pattani Campus

إلا ما تقتبسه في أثناء تعاملها مع العالم الإسلامي ، ثم هي لم ترتفع قط حتى اللحظة إلى هذا الأفق في عالم الواقع ، حتى بعد ما عرفت نظرياً شيئاً اسمه القانون الدولي ، وعلى الذين يبهرهم التقدم الفني في صناعة القانون أن يدركوا حقيقة الواقع بين الإسلام والنظم المعاصرة جميعاً) . (سيد قطب ، 1402هـ : 1543/3) .

والآيات تضيف بعداً آخراً من أبعاد المفهوم الإسلامي للحرب ، إنها تصرح بتوجيه الأمر للمسلمين بإعداد القوة لإرهاب الكفار ، ولا نجد إرهاباً يورث العالم كله أمناً وسلاماً ، وحضارة ورخاء مثل إرهاب المسلمين الكفار .

إن الحرب في الإسلام إنما هي جهاد لنشر دين الله ، بخيره وعدله وبره ورحمته في الأرض ، والحفاظ على نتائج الجهاد ، إنما هو حفاظ على سيادة المسلمين وتمكينهم وجعل الغلبة لهم في الأرض ، وعندما يكون ذلك متحققاً ، وطالما ظل الأمر كذلك فإن الخير والبر والعدل يعم وجه الأرض .

إن الإسلام لا يحاربون لأمجاد شخصية ، ولا لقهر أحد أو إذلاله ، وإنما يحاربون ليسود حكم الله في الأرض وبين البشر ، واقتسام خير الأرض بما يخرجه الناس جميعاً من خيرها بالسعي الجاد والعمل الدؤوب وذلك كله من خلال إعلان عبودية الجميع لله وحده . (السيد جبريل ، 1983م : ص279) .

والمسلمون يحافظون للفضيلة وجودها وانتشارها بمعناها الواسع الذي يشمل جماع الأخلاق الكريمة ، وينهون عن المنكر ، فيقضون على كل رذيلة من منبعها ، ويجتذون رأسها عند بروزها ، وهذه المقاصد كلها هي بعض غايات الجهاد في سبيل الله .

5,16 ما نزل في السلم ، متى وكيف ؟

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62)

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63) يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64) يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (65) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66) ﴾.

5,16,1 المعاني اللغوية :

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

الجنوح هو : الميل ، قال ابن منظور : (ويقال : أقمت الشيء فاستقام ، واجتنحته أي أملته فجنح ، أي مال) . (ابن منظور ، 1992م : 696/1) . وتأنيث الضمير العائد إلى السلم إما : حملاً على معنى المسالمة ، وإما حملاً على نقيضه (الحرب) وهو مؤنث ، أو أن لفظ السلم يذكر ويؤنث ، والتأنيث لغة . (أبي حيان ، 1403هـ: 513/4) .

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾ الحسب هو الكفاية ، والحسيب هو الكافي ، قال سيبويه : (وأما حسب فمعناها : الاكتفاء ، وحسبك درهم أي كفاك ، وهو اسم ، وتقول : حسبك ذلك أي كفاك ذلك) . (ابن منظور ، 1992م : 864/2) .

﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ) استئناف مسوق لتعليل كفايته تعالى لرسوله ﷺ ، فإن ما حدث يوم بدر من مدد الملائكة ، وتقوية المؤمنين على البلاء الحسن، من دلائل هذا التأييد وتلك الكفاية . (المراغي ، 1974م : 27/10) .

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾

ضمير المضاف إليه إما عائد إلى الأنصار من الأوس والخزرج ، أو إلى المؤمنين جميعاً من

المهاجرين والأنصار ، والتأليف هنا هو : عبارة عن إحلال المودة والمحبة والإخاء ، مكان التباعد والبغضاء والتنافر . (المراغي ، 1974م : 27/10) .

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ التعقيب هنا بوصف الله تعالى بالعزة والحكمة لبيان أن ذلك تعليل لكفاية الله لرسوله شرّ خداع الأعداء وتأييده له بنصره وبالمؤمنين ، يقول الشيخ رشيد رضا في المنار : (هو الكفاية والتأييد ، وهو المناسب لكونه تعالى هو العزيز ، أي الغالب على أمره الذي لا يغلبه خداع الخادعين ، ولا كيد الماكرين ، الحكيم في أفعاله ، كنصرة الحق على الباطل ، وفي أحكامه كتفضيله الجنوح للسلم على الحرب ، ولو كان تعليلاً للتأليف بين المؤمنين وحده ، لكان النسب أن يعلل بقوله (أنه رؤوف حليم) على أن هذا التأليف في هذا المقام ما كان إلا بعزة الله وحكمته في إقامة هذا الدين) . (رشيد رضا ، د.ت : 83/10) .

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تصدير الجملة بحرفي النداء والتنبيه للدلالة على كمال الاعتناء بمضمونها ، وذكر الرسول ﷺ بعنوان النبوة فيه إشعار بأن هذا العنوان أساس في علة الحكم بالكفاية والتأييد . (ابن القيم الجوزية ، 1993م : 342/2) .

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ التحريض هو المبالغة في الحث، قال الجوهري : (التحريض على القتال : الحث والإحماء عليه) . (ابن منظور ، 1992م : 836/2) .

﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الجملتان شرطيتان في ضمنهما الأمر ، ولذلك جاز فيهما النسخ على رأي من يقول بذلك ، وتكرير الحكم بغلبة الواحد لعشرة إنما لطمأنة المؤمنين بأن الأمر بهذه الصورة يطرد في الجمع القليل وفي الجمع الكثير ، على أنه من جهة أخرى كان رسول الله ﷺ يبعث السرايا ، والغالب أن تلك السرايا ما كان ينقص عددها عن العشرين وما كانت تزيد عن المائة . (الفخر الرازي ، د.ت : 86/10) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ متعلق بـــ (يَغْلِبُوا) أي أن هذه الغلبة التي تخالف العادة بسبب أن الكفار قوم لا يفقهون .

﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ الآن ظرف لنزول ما تـــضمنته الآية من أحكام ، وعلى ذلك فتقييد التخفيف به ظاهر ، لما ورد بعد ذلك من وصـــفهم بالضعف المستدعى لهذا التخفيف في تلك الآونة . أما (ضَعْفًا) فقد قرئ بفـــتح الـــضاد وبضمها ، قال ابن منظور : (الضَّف والضُّف : خلاف القوة ، وقيل : الضعف بالـــضم في الجسد ، والضعف بالفتح في الرأي والعقل ، وقيل هما جائزان في كل وجه) . (ابن منظور ،1992م : 2587/4) .

﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ الحديث فيها كالحديث في مثيلتها في الآية الماضية ، وقوله (بِإِذْنِ اللَّهِ) فمعناه أي : بتيسيره وتسهيله .

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ إشارة إلى تأييدهم وأنهم منصورون حتماً ، لأن من كان الله تعالى معه لا يغلب ، وفي نفس الوقت يمكن يستفاد منه تحريضهم على الصبر .

5,16,2 المعنى العام :

يأمر الله تعالى نبيه ﷺ في الآية الأولى أن يجيب الكفـــار إلى الـــصلح إن عرضوه ، ولقد كانت الآية بهذا المفاد مثار خلاف بين العلماء على طبيعة هذه الإجابة ، هل هي مرحلية أو دائمة ، وقد رتبوا ذلك على أقوالهم فيها بالنسخ أو التخـــصيص أو الإحكام ، مع إزالة التعارض بينها بين الآيات التي أمرت بقتال الكفار على الإطلاق .

قال الإمام الآلوسي في تفسيره : (وإن كان للمسلمين مصلحة في الصلح ، لنفع يجتابونه ، أو ضرر يدفعونه ، فلا بأس أن يبتدئ المسلمون به إذا احتاجوا إليـــه ، وقد صالح رسول الله ﷺ أهل خيبر على شروط نقضوها فنقض صلحهم) . (الآلوسي ، د.ت : 40/8) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

ويقول سيد قطب رحمه الله : (وعلى أية حال فالذي ننتهي إليه ، أن قوله تعالى : (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) لا يتضمن حكماً مطلقاً نهائياً في الباب ، وأن الأحكام النهائية نزلت فيما بعد في سورة براءة ، إنما أمر الله رسوله أن يقبل مسالمة وموادعة ذلك الفريق الذي اعتزله فلم يقاتله سواء كان قد تعاهد أو لم يتعاهد معه حتى ذلك الحين ، وأنه ظل يقبل السلم من الكفار وأهل الكتاب حتى نزلت أحكام سورة براءة ، فلم يعد يقبل إلا الإسلام أو الجزية ، أو هو القتال ما استطاع المسلمون هذا ، ليكون الدين كله لله) . (سيد قطب ، 1402هـ : 1546/3) .

من كل ما سبق نرى أنه لا اختلاف على التحقيق في هذه المسألة ، وأن الفيصل فيها هو اعتبار حال المسلمين ضعفاً وقوة ، وإليه تنتهي جميع الأمور .

ثم تمضي الآيات بعد ذلك لتبين أن عرض الصلح من الكفار إن كان مبنياً على إرادة الخديعة فهذا لا يغير من الأمر شيئاً ، وعليه ينبغي قبول الصلح لأن الحكم يبنى على الظاهر ، لأن الصلح لا يكون أقوى حالاً من الإيمان ، فلما بنينا أمر الإيمان على الظاهر لا على الباطن فهنا أولى . (الفخر الرازي ، د.ت : 188/15) .

ومن الآيات أيضاً يتضح بشارة للنبي ﷺ وللمؤمنين بأن الله كافيهم وناصرهم في كل حال ، سواء كان ذلك في موجهة النوايا الغادرة من الأعداء ، أو في مواجهة نقض العهود بالفعل ، أو البدء بالحرب عموماً ، ومن كان الله تعالى كافيه وناصره فلن يغلب ما حقق مطلوبات هذا النصر ، ومن ثم وردت الآية التالية بهذه المطلوبات ، وهي تتلخص في القتال ، وبذل الجهد فيه ، وإخلاص البلاء في ميدانه ، والجميع في ذلك سواء ، فالنبي ﷺ يحرص على القتال ويقاتل ، والمؤمنون يقابلون هذا التحريض باستجابة الواثقين في غير تردد ولا وجل ولا ريب .

إن الآية وإن أتى التعبير فيها بلفظ الخبر ، إلا أن مضمونها الأمر بهذا الثبات الذي ينفرد به المؤمن ، وقد تعددت أقوال العلماء في فهم سر هذا التكليف الذي يفوق الطاقة في اعتبار المادة ، ولكنها كلها دارت في إطار واحد يرجع ذلك إلى ما يحدثه

Prince of Songkla University Pattani Campus

الإيمان من أثر في القلوب ، وذلك يلمح من خلال ذكر الصحابة في الآية بعنوان الإيمان ، ويرجع أيضاً إلى معونة الله تعالى التي لا يغلبها غالب .

قال الفخر الرازي : (واعلم أن هذا التكليف إنما حسن لأنه مسبوق بقوله (حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) فلما وعد المؤمنين بالكفاية والنصر ، كان هذا التكليف سهلاً ، لأن من تكفل الله بنصره فإن أهل العالم لا يقدرون على إيذائه) . (الفخر الرازي ، د.ت : 192/15) .

والآيات تدور حول ما كان مثار خلاف بين العلماء من التكاليف التي ودرت فيها ، وخلاصة ما ورد في هذا الصدد :

أن جمهور العلماء بأن ما في الآية من فرض ثبات المؤمن أمام اثنين من الكفار ، ناسخ لما في الآية السابقة من فرض ثبات المؤمن أمام عشرة من الكفار ، وعللوا قولهم هذا بما يلي :

أولاً : ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله : (لما نزلت " فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ " فكتب عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ، فقال سفيان غير مرة : أن لا يفر عشرون من مائتين ، ثم نزلت " الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ " الآية ، فكتب أن لا يفر مائة من مائتين) البخاري ، 1378هـ : 133/2) .

ثانيا : أن المتبادر من السياق القرآن يؤدي إلى القول بالنسخ : "الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا " فإنه رفع للحكم السابق لثقله ومشقته على المسلمين لما فيهم من ضعف ظاهر ذكر بالنص في الآية .

وأنكر أبو مسلم الأصفهاني في أن يكون في الآية نسخ ، وحمل ما في الآية الأولى على أن تكليف العشرين بالثبات أمام المائتين مشروط يكون العشرين قادرين على الصبر في مقابلة عشرة أمثالهم ، وأما الآية الثانية : " الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا " فتدل على انعدام شرط القدرة في حق هؤلاء ، فلا يثبت ذلك الحكم في حقهم ، وعليه فلا نسخ .

Prince of Songkla University Pattani Campus

وتابع البعض أبا مسلم على هذا القول ، منهم رشيد رضا ، الذي جعل الآية الأولى في موضع العزيمة ، والثانية في موضع الرخصة ، وكل منهما لا تنافي الآخر حتى يلجأ القول بالنسخ[138] . (رشيد رضا ، د.ت : 10/92-93) .

والبعض ممن تابع أبو مسلم أيضاً اعتبر ما في هذه الآية هو الحكم النهائي ، غير أن الآية الأولى نزلت قبل الثانية لتمهد بالحكم الذي قررته للحكم الذي ستقرره الثانية . (مصطفى زيد ،1985م : ص15) .

واستدل هؤلاء أيضاً ، بأن المسلمين بعد ذلك في الفتوح ، وفي كثير من المواقع الشهيرة لقوا أعدائهم بأقل من عشرهم في العدد ، وانتصروا عليهم .

5,16,3 فقه الآيات :

ترسم الآيات الكريمة صورة مشرقة لمجتمع الإيمان ، إنه مجتمع الحب ، فصفحات الرحمة والتعاون والبر والإحسان ، وهي أبرز صفات المجتمعات الإيمانية ، تنطلق كلها من مبدأ الحب ، الحب في الله المنزه عن كل غرض ، ذلك الحب الذي جعله النبي ﷺ من مقتضيات الإيمان ذاته عندما قال : " لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ " . (البخاري ، 1378: حديث رقم 5581) . وتأييد المؤمنين للرسول ﷺ ومؤازرتهم إياه أمام الأعداء ، قد انطلقت في تأثيرها أيضاً من الحب الذي جمعهم الله عليه حتى ضربوا في الإيثار أكرم الأمثلة .

ثم أن في الآيات أيضاً الفرق بين الإيمان والكفر عند الابتلاء وفي موجهة الخطر ، وهو مبني على اليقين الذي يفتقده الكافر ، فتضعف قوته وإن عظمت ، وتقل أعداده وإن كثرت .

إن اليقين هو ما تجلى في موقف عمير بن الحمام ، بينما كان يأكل تمرات ، فسمع النبي ﷺ يحرض على القتال يوم بدر ، ويقول : " والذي نفس محمد بيده لا

---

[138] انظر تفسير المنار ج 10 ص 92-93 .

يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة " . ثم ألقى ما كان بيده من تمرات ، فحمل سيفه وقاتل حتى قتل رضي الله عنه .[139]

تلك هي آثار الإيمان ، إذا خالطت بشاشته القلوب ، وبهذه الآثار المضيئة لقي المسلمون في كل ميدان أعدائهم ، فلم ترهبهم قوة ، وهم على ذلك أبداً ما حققوا الإيمان اعتقاداً وسلوكاً .

5,17 ما نزل في الأسارى والمغانم :

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (68) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (69) يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (71) ﴾.

5,17,1 المعاني اللغوية :

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ قراءة الجمهور (لنبي) وهي تفيد العموم ، وقرأ أبو الدرداء وغيره (للنبي) على أن المراد به النبي ﷺ ، وقراءة الجمهور أولى لما فيها من بيان أن ما يذكر سنة مطردة فيها بين الأنبياء صلوات الله عليهم جميعا ، ومعنى (ما كان) ما صحّ وما استقام ، فهي على ذلك للنفي والتنزيه ، أي : ما يجب وما ينبغي أن يكون له . (الفخر الرازي ، د.ت :200/15).

---

[139] أنظر هذه القصة في سيرة ابن هشام (196/2) . وتفسير ابن كثير (374/2) .

أم الإثخان فأصله من السجانة ، وهي الكثافة والغلظ والثقل ، قال صاحب اللسان : (ثخن الشيء ثخونة وثخانة وثخناً ، كثف وغلظ وصلب ، ورجل ثخين السلاح أي شاك ، والثخنة والثخن : الثقلة) . (ابن منظور ، 1992م : 473/1) . ثم استعيرت هذه المعاني للمبالغة والإكثار من القتل والجراحات ، والمعنى على ذلك : ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يبالغ في القتل ويشتد على أعدائه من الكفار .

﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ استئناف مسوق لعتاب من أراد ذلك ، والعرض : هو ما كان عرضه للزوال ، فلا ثبات له ولو كان جسماً ، وقوله (وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ) أي يريد لكم ثواب الآخرة في مقابل ما تريدونه أنتم لأنفسكم من حطام الدنيا الفاني بأخذكم الفدية .

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ من معاني الكتاب : الفرض والقدر والحكم ، كما ذكره ابن منظور ، 1992م : 526/5 . ومعناه هنا الحكم ، قال أبو السعود : (أي لولا حكم منه تعالى سبق إثباته في اللوح المحفوظ ، وهو ألا يعاقب المخطأ في اجتهاده ، أو أن لا يعذب أهل بدر ، أو قوماً لم يصرح لهم بالنهي) . (أبو السعود ، د.ت : 509/2) . لولا ذلك (لمسكم) أي أصابكم (فيما أخذتم) من الفداء ، أي بسببه (عذاب عظيم) .

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ توجيه الفاء في (فكلوا) ينبني على ما ذهب إليه المفسرون في تقرير المعنى ، قال الزمخشري : (أن قوله (فكلوا) متسبب عن جملة محذوفة هي سبب ، وأفادت ذلك الفاء ، وقدرها : قد أبحت لكم الغنائم فكلوا) ، وقال الزجاج : (أن الفاء للجزاء ، والمعنى قد أحلت لكم الفداء فكلوا) . (أبو حيان ، 1403هـ : 520/4) . أما (حلالاً) فهو حال من المغنوم ، وأما (طيباً) فهو صفة لحلال تفيد تأكيد الإباحة للفدية لما كان في العتاب من الشدة .

Prince of Songkla University Pattani Campus

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في مخالفة أمره ونهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعقيب يؤكد غفران الله تعالى لهم لما حدث منهم في شأن الأسرى .

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ ﴾ قوله (لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ) مقصود به من هم في ملككم واستيلائكم ، وعبر عن ذلك بما يفيد قبض اليد عليهم بالفعل ، لأن اليد رمز التملك ، والأسرى هم أسرى بدر الذين أخذ منهم الفدية ، والمأمور بتبليغهم ذلك هو رسول الله ﷺ ولذلك وجه الخطاب إليه في الآية ، أما الخير المذكور ، فالمقصود به ما يعوضون به عمّا أخذ منهم من الفداء ، وهو أفضل منه .

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ ﴾ أي نقض ما عاهدوك عليه من إعطاء الفدية ، أو عدم العود لحربك ، أو ما عاهدوك عليه من الإسلام . وجملة ﴿ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ قائمة مقام الجواب ، والجملة كلام مسوق من جهته تعالى لتسليته ﷺ بطريق الوعد له والوعيد لهم . (الآلوسي ، د.ت : 37/10) .

5,17,2 المعنى العام :

لقد سبق وأن أشرنا أن غزوة بدر تمت في ظروف بلغ فيها تطاع المسلمين إلى الاستقرار وإلى الأمن ، برغم تغير ظروف العهد المكي بما حدث فيها من الاضطهاد والإيذاء ، كانوا قلة غير مرهوبة الجانب في نظر المكيين ، الذين كانوا يعتقدون أن زمام المبادرة معهم ، وأن الأمر لم يفلت من أيديهم ، وكان ذلك الاعتقاد هو المنطلق لتصرف أبي جهل في إصراره ورود بدر للطعام والشراب واللهو ، تصور هو من معه أنها بمثابة فخ يجر المسلمين إلى حربه فيكون فيه هلاكهم ونهايتهم .

وعلى الجانب الآخر تحسب المسلمون من هذا اللقاء المرتقب ، وأشار بعضهم بعدم المضي ، ورغم ذلك تمت المعركة ، وجاءت النتيجة مذهلة شلت تفكير المشركين وزلزلت كيانهم ، ومن ذلك اليوم انطلقت شرارة الجهاد ، واشتعلت جذوته

Prince of Songkla University Pattani Campus

المباركة ، فكان إنقاص عدد المشركين بكثرة القتل فيهم وإهلاكهم بمثابة ضربة قاصمة للشرك وأهله .

ومن جهة أخرى كان من المهم إبراز معنى الصرامة التي لا تعرف ليناً عندما يتعلق الأمر بالدين ، وذلك ما عبر عنه عمر رضي الله عنه حيث قال : (حتى يعلم الله عز وجل أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين . (بن عطية ، 1980م : 116/8) .

من أجل ذلك كله ـ والله أعلم بمراده ـ أن الله تعالى كره المسلمين تصرفهم في الحرب حيال بعض أفراد المشركين ، من إبقائهم على حياة هؤلاء بأسرهم ليفادوا بالمال ، فقال تعالى : (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ) فإن إبقاء على حياة الأعداء لمصلحة ، نحو فدائهم أو مبادلتهم بأسرى المسلمين يكون أمراً غير ذي خطر ، أما في غير هذه الظروف ، فالواجب هو التحسب للأمر ، ومراعاة جانب الأمن والاحتياط له .

لقد كان الأمر خطيراً ، بما يمكن أن يجلبه من أضرار لم يحسب لها من اجتهدوا من الصحابة في هذا الأمر ، وحتى يتحقق الغرض من هذه النوايا السليمة ، فقد أباح الله تعالى لهم ما أخذه من الفداء مع سائر الغنائم للأكل منه ، والتقوى به على الجهاد .

ويواصل السياق القرآني الحديث بشأن أسرى بدر ، ليلق الضوء على ما يؤصله الإسلام من معاني الخير في الأرض .

إن الأسرى بمجرد أسرهم قد أصبحوا في قبضة النبي ﷺ ، وعدوله ﷺ عن قتلهم وقبوله الفداء منهم ، إلا النظر من جانبهم كانت تجسد عظم الهزيمة ، و لم يكن من هدف الإسلام استذلال النفوس ، ولا التجبر في الأرض عند علوهم فيها ، إلا أن منهج الدعوة إلى الإيمان والترغيب فيه ، يحيي الأمل في نفوس هؤلاء الأسرى ، ويعوض عمّا أخذ منهم أوفر ، وفوق ذلك كله يعدهم بمغفرة لما سلب منهم ورحمة .

Prince of Songkla University Pattani Campus

5,17,3 فقه الآيات :

روى البخاري عن أَنَسٌ رَضِي اللَّه عَنْه أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْأَنْصَارِ اسْتَأْذَنُوا رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ ، فَقَالُوا : " ائْذَنْ لَنَا فَلْنَتْرُكْ لِابْنِ أُخْتِنَا عَبَّاسٍ فِدَاءَهُ " . فَقَالَ : " لَا تَدَعُونَ مِنْهُ دِرْهَمًا " . (البخاري ،1378هـ : رقم الحديث 2352).

هذا الحديث وقد ورد في تفسير الآية ، ينبئ عن كثير من الحقائق في الإسلام ، فالتطبيق والعمل ليس بمعزل عن النظرية والقول في هذا الدين والقدوة أساس الدعوة الناجحة ، والتسوية في التعامل ليست شعاراً يرفع من غير مضمون .

لقد أراد الأنصار مجاملة النبي ﷺ في عمه ، فجعلوا المسألة من جانبهم : (ائْذَنْ لَنَا فَلْنَتْرُكْ لِابْنِ أُخْتِنَا عَبَّاسٍ فِدَاءَهُ) لقد ذكروه بهذه الصفة[140] حتى لا يشم من فعلهم رائحة منه على رسول الله ﷺ، فكأنهم يرجون من النبي ﷺ مجاملتهم بهذا الصنيع .

وبرغم تغليف تصرف الأنصار بهذه الاعتبارات ، فإنه ﷺ لم يأذن في محاباته هو ولا غيره ، بل رد عليه قائلاً : (الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك ، وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابن اخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ،وعقيل بن أبي طالب ،وحليفك عتبه بن عمرو أخي بن الحارث بن فهر) . (ابن كثير ، 1996م : 327/2) .

لم يكن الأمر عند هذا الحد ،بل ورد أنه ﷺ أخذ في فداء عمه أكثر مما أخذ من بقية الأسرى ، فقد نقل القرطبي عن محمد ابن اسحاق قوله : (وكان أكثر الأسرى فداء العباس بن عبد المطلب ، لأنه كان رجلاً موسراً ، فافتدى نفسه بمائة أوقية من الذهب) . (القرطبي ، 1996م : 52/8) .

---

[140] أي بنسبته إلى قرابتهم ، لأنهم عنوا بقولهم : (ابن اختنا) جدته أم عبد المطلب ، فهي أنصارية من بني النجار .

Prince of Songkla University Pattani Campus

وبهذا التصرف النبوي الكريم تبرز حقيقة الأسوة التي وردت في القرآن ، وبه أيضاً تتجسد الحقائق الإسلامية في مجالات العدل ، والمساواة ، وتصديق القول بالعمل .

5,18 ما نزل في التواصل بين المسلمين :

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (73) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (74) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (75) ﴾.

5,18,1 المعاني اللغوية :

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم المهاجرون الذين هجروا أوطانهم طاعة لله ، وامتثالاً لأمر الرسول ﷺ ، وعليه يمكن أن يكون قوله (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) من باب التنازع في العمل بين : هاجروا وجاهدوا ، أي هاجروا في سبيله وجاهدوا في سبيله أيضاً . (الآلوسي ، د.ت : 37/10)

﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا ﴾ وهم الأنصار من أهل المدينة ، الذين آووا النبي ﷺ والمهاجرين ونصروهم ، والإيواء هنا تعبير عن التأمين من المخافة ، فالمأوى على ذلك هو الملاذ والملجأ والمأمن .

Prince of Songkla University Pattani Campus

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ وقد قرىء (وَلايتهم) بفتح الواو وكسرها ،(أبي حيان ، د.ت : 522/4) . وهما في اللغة بمعنى واحد ، قال ابن منظور : (ولى الشيء وولى عليه وَلاية وولِاية ، وقيل الوَلاية الخطة كالإمارة ، والوِلاية المصدر) . (ابن منظور ،1992م : 4920/6).

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ المراد بالفتنة المرتقبة من عدم تنفيذ ما ورد في الآيات هو : اختلاف الكلمة ، وضعف الإيمان ، وظهور الكفر ، والمراد بالفساد الكبير ، سفك الدماء المترتب على ما تجره الفتنة من حروب .

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ كلام مستأنف سيق للثناء على من ذكرته الآيات قبل ذلك من أقسام المؤمنين : المهاجرين والأنصار .

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ تنكير (مغفرة) لتعظيم شأنها ، والجملة استئناف بياني وقعت جواباً عن سؤال مقدر هو : ماذا لهم ؟ .

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ ﴾ الأفعال الماضية في الآية (آمنوا) وما بعده محمولة في معناها على المستقبل ، أي يؤمنون ويهاجرون ، حتى يستقيم المعنى ، لآن السورة نزلت قبل حدوث ذلك .

﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ الرحم أسباب القرابة ، وأصلها : الرحم التي هي منبت الولد ، قال الجوهري : الرحم القرابة . قال ابن الأثير : ذوو الرحم هم الأقارب . ويقع كل من يجمع بينك وبينه نسب . (ابن منظور ، 1992م : 1613/3) . والمقصود بـ (كتاب الله) حكمه أو اللوح المحفوظ .

Prince of Songkla University Pattani Campus

5,18,2 المعنى العام :

قال المفسرون ،ذكر الله تعالى في الآية الأخيرة من السورة أصناف المؤمنين في عهد النبي ﷺ ، وقسمهم إلى أربعة أقسام ، جاءت ثلاثة منها في أول هذه الآيات :

الأول : المهاجرون السابقون ،وهؤلاء قد اتصفوا بصفات أربع صرحت الآية بثلاثة منها ، وفهم الرابع من السياق : فأول : صفاتهم الإيمان ، وثانيها : الهجرة ، وثالثها : الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال ، ورابعها : السبق في الهجرة وفي الإيمان أيضاً.

فالسبق إلى الإيمان وسط الظروف التي بعث فيها النبي ﷺ ، وتحمل الأذى في سبيل ذلك ، وكذلك الهجرة ومفارقة الأهل والوطن وما إلى ذلك من مشقة جعلت عدلاً لقتل النفس ، كما قال تعالى : (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ) (سورة النساء : الآية 66) .

الثاني : الأنصار وقد وصفهم الآية بالإيواء والنصر المترتبين على الإيمان ، وهؤلاء قد ضربوا بسهم وافر في نصرة النبي ﷺ ، وإعلان حبهم الذي عبر عنه النبي ﷺ بأكثر من قول ، و لم يقتصر الأمر على ذلك ، بل تعدى إلى أنه ﷺ جعل حب الأنصار من علامات الإيمان فقال فيما رواه عنه الْبَرَاءَ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " الْأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ " . البخاري ،1378هـ : رقم الحديث 3499) .

الثالث : هم المؤمنون الذين لم يهاجروا بل بقوا في مكة ، وتذكر الآية ما يجب من الولاء بين المهاجرين والأنصار ، فهؤلاء الذين لم يهاجروا ، لا يتمتعون بتلك الولاية التي من شأنها المناصرة والتعاون ، لأن تحقيق ذلك بعيد لما بين الفريقين من بعد مكاني ، ولكنها ليست القطيعة الكاملة ، فهناك الأصل الذي قام عليه الترابط أساساً وهو الإيمان ، ولذلك يجب نصرة هؤلاء إذا استنصروا إخوانهم على من يعتدى عليهم . (ابن عطية ، 1980م: 122/8) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

إن الإسلام قد قصد من الهجرة تكوين المجتمع ، وجمع من يدينون به تحت لواء واحد ، وتنظيم واحد ، ليبرز له الكيان الاجتماعي له في مواجهة الأنظمة الأخرى .

وفي الآيات يخبر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنون جميعاً بأن الكفار وإن اختلفت عقائدهم ، يوالي بعضهم بعضا ، ويتناصرون في مواجهة الإسلام .

لأنه لما كان دين الإسلام هو دين الله الحق ، وهو آخر تعاليم الله للبشر ، وكان كل من ينتسب إليه ، ويدين به ، ويصدق برسالته ، ليس على الحق ن بل على ضلال بيّن ، ومن ثم يكون حرباً على هذا الدين وأهله وكل ما ينتمي إليه .

فإن الآية في معناها تحبر عن تناصر الكفار في مواجهة الإسلام ، وقد حدث ذلك ممن وجد منهم في عهد النبي ﷺ ، وهم المشركون واليهود والنصارى ، يبين ذلك الإمام الفخر الرازي فيقول : (والمشركون واليهود والنصارى لما اشتركوا في عداوة محمد ﷺ ، صارت هذه موجبة لانضمام بعضهم إلى بعض وقرب بعضهم من بعض ، وذلك يدل على أنهم ما أقدموا إلى تلك العداوة لأجل الدين ، لأن كل واحد منهم كان في نهاية الانكار لدين صاحبه ، بل كان ذلك من أدل الدلائل على أن تلك العداوة لمحض الحسد والبغي والعناد) . (الفخر الرازي ، د.ت : 211/15) .

ثم أن الله تعالى لما ذكر هذه الأحكام حذر من مخالفتها فقال : ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ أي إن لم تفعلوا ما ذكر ، وهو ما شرع من ولاية بعضكم لبعض وتناصركم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض عليكم ، ومن الوفاء بالعهود والمواثيق مع الكفار إلى إن ينقضي عهدهم أو ينبذ عن سواء ، يقع من الفتنة والفساد الكبير في الأرض ما فيه أعظم الخطر عليكم بتخاذلكم ، وفشلكم المفضي إلى ظفر الكفار بكم ، واضطهادكم في دينكم لصدكم عنه ، كما كانوا يفتنون ضعفائكم بمكة قبل الهجرة) . (تفسير المنار ، د.ت : 132/10) .

ثم توالت الآيات إعادة ذكر الأنصار والسابقين من المهاجرين ما ينبغي لهم من حقوق للثناء والتكريم ، عملاً بقاعدة (إعطاء كل ذي فضل فضله) فكان

ذكرهم هنا لبيان تعظيم شأنهم وعلو درجتهم ، وكيفية ذلك يوضحها الفخر الرازي فيقول : (وبيانه من وجهين :

الأول : أن الإعادة تدل على فريد الاهتمام بحالهم ،وذلك يدل على الشرف العظيم .

والثاني : وهو أنه تعالى أثنى عليهم هنا من ثلاثة أوجه :

أولها : قوله : (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) فقوله (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ) يفيد الحصر ، وقوله (حَقًّا) يفيد المبالغة في وصفهم .

وثانيها : قوله (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) وتنكير لفظ مغفرة يدل على الكمال ، والمعنى لهم مغفرة تامة كاملة عن جميع الذنوب .

وثالثها : (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) المارد منه الثواب الرفيع الشريف . (الفخر الرازي ، د.ت : 217/15) .

ثم تختم الآية الكريمة ومعها السورة بقوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وهذا الوصف إلى جانبه كونه تعظيماً لله وتنزيهاً لجنابه سبحانه ، إنما يشير إلى ما يحمله التشريع الإسلامي من الخير والمصلحة فيما طرقته السورة من قضايا ، وما قررته فيها من مفاهيم سواء في القتال أو الغنائم أو السرى أو صفات المؤمنين أو معاملاتهم مع غيرهم في حربهم وسلمهم وعهودهم ، ذلك كله ضرورة أن الذي خلق الخلق هو أعلم بما يصلحهم ، وهو سبحانه يشرع لهم وفق هذا العلم المحيط بما يصلح شأنهم في دنياهم وأخراهم . (السيد جبريل ، 1983م : ص280) .

5,18,3 فقه الآيات :

ومن الآيات تبرز بعض آثار هذا الدين الحنيف وثماره الطيبة ، فرابطة الإيمان عند المسلم ، تفوق رابطة القرابة بكل صورها ، فالمسلم أقرب إلى المسلم من أخيه

Prince of Songkla University Pattani Campus

وأبيه وكل أهله إذا كانوا غير مسلمين ، والمودة والتعاون في الإسلام تبذل للمسلم وإن كان غريباً .

لقد آخى النبي ﷺ بين المسلمين في مكة ، وفي المدينة بين مهاجريهم وأنصارهم ، وكانت رابطة الدين هي الأساس .

وكذلك يبرز في الآيات احترام الإسلام لعهوده بصورة لم يعدها العالم في شعب ولا أمة غير شعب الإسلام وأمته .

بمثل هذه الروح الإسلامية من احترام المعاهدات ، تمتاز أحكام السياسة الإسلامية على الأحكام القانونية المدنية بما يحمل المسلمين أصدق في إقامة شريعتهم ، وأجدر بالوفاء بعهدهم ، وابعد عن الخيانة سراً وجهراً ، وفي هذا من المصلحة لخصومهم من الكفار وما هو ظاهر ، فكيف بأهل ذمتهم . (رشيد رضا ، د.ت : 129/10) .

إن النسيج الاجتماعي في الإسلام نسيج منفرد ، فهذا الدين الحنيف يوازن في النفس الإنسانية بدقة بالغة ، بين متطلباتها الخاصة والعامة من جهة ، وبين واجباتها وما يلقى إليها من تكاليف من جهة أخرى .

فالسمة العامة لمجتمع الإيمان في مجال العلاقات الإنسانية أنه مجتمع الأخوة الحب ، كما قال تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) . سورة الحجرات : الآية 10) .

إن بر المسلم بإخوانه المسلمين وكفه الأذاء عنهم أمر واجب ، وهو بأهله وقرابته أوجب ، فمجتمع الإيمان إذن مجتمع الحب ، وما يخلفه هذا الحب من التراحم والتعاون والتناصر .

Prince of Songkla University Pattani Campus